

من كتب الساعة

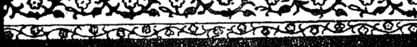
القائد الزاهد

الذى قوض عرش كسرى

سعد بن أبى وقاص

بقلم
كمال سالم مشهور





من كتب الساعة

القائد الزاهد

الذى قوض عرش كسرى

سعد بن أبى وقاص

بقلم
كمال سالم مشهور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتطلب الوقت الراهن مزيداً من الإهتمام بتراثنا الزاخر بالقيم ، الحافل بالأحداث والعبر ، التى تجلو لنا الطريق . .

لذلك نصدر كتاب الساعة :

القائد الزاهد — الذى قوض عرش كسرى — سعد بن أبى وقاص ...

لنرى فى وميضه قوة العربى ، وعلو شأنه ، ونزعته الشديدة إلى التفوق ، وتصميمه الأكيد على الانتصار ، وصموده فى سبيل مجد دينه ووطنه ...

وإن هذا الكتاب يبين مرحلة تاريخية هامة مليئة بالعظات ، والدراسة المجدية ، والمتعة الروحية ..

فيحلق بقارئه إلى آفاق المجد العربى التليد ، عبر القرون السحيقة ، ويسمو به إلى حيث يلتقى بالزهد واضحا ، والبطولة مجسدة . . . ويتقابل مع القصص المثيرة ، والأصول الحربية المتفوقة . . . إذ يبهر سعد المؤرخين والعسكريين والباحثين بأفكاره التقدمية ..، المتسمة بالإخلاص ، واليقين والدراية ... ولاغرو فإنه القائد المنتصر ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المبشر بالجنه ، رافع راية الاسلام فى العراق ومعظم بلاد فارس ، وأزربيجان ، وأجزاء من أرمينيا ... منقذا تلك الأقاليم من ذل ألوثنية وعارها ... دافعا إياها إلى طريق الهداية والنور ، طريق خير البشرية ومجدها ..

المؤلف

كمال سالم مشهور

نسبه

إنه سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن النضر بن كنانه القرشى .

فهو ابن عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويجتمع نسبه هو وآمنة فى عبد مناف .

وهو بذلك خال الرسول .

وأمه حمنه بنت سفيان بن عبد شمس .

وإن سعدا لمن أصل ثابت عظيم ، وجاه عريض .

فهو الذى ينتسب لأب قرشى عريق ، وأم من بيت كريم .

لمحات من شخصيته :

كان سعد ممتلىء الجسم قويا ، ناضر الوجه أسمرا .. بدا أنيقا فى مظهره ، تحف به سمات الهيبة والوقار .

إشتهر بأنه فارس جرىء ، الأسد عاديا .

أثرت عنه المهارة فى الرماية ، فما طاش له سهم .

تحرى الصدق فى قوله ، واتبع العدالة فى عمله .

تميز بأصالة التفكير ، ونضوجه . ، وبصفاء نفسيته ، ونور بصيرته .

نشأته وحرفته :

نشأ سعد فى أعرق القبائل العربية ، وأعلاها نسبا وشرفا ، وأعظمها عراقة وأصالة ، إذ نشأ فى قبيلة قريش .

عاش فى أقدس مكان فى الوجود ، إلى جانب البيت الحرام ، فى مكة المكرمه .

كان يعمل فى برى السهام ، وصناعة القسى .

فى ذاك العهد ، احتلت السهام والقسى منزلة مرموقة لأهميتها الكبيرة ، إذ كانت فى مقدمةعدد الحرب ، تصيب قبل أن تصيب السيوف ، وتصل إلى مالاتصل إليه الرماح .

وهى كذلك من عدد المترفين التى يصطحبها الأغنياء فى رحلات الصيد ، التى يخرجون إليها للمتعة والتفاخر !! .

اشتهر سعد فى عمله بالنشاط والبراعة ، وصار سيدا للرماة ، واقتنى ثروة طائلة من صناعته الرائجة ، وشهرته المدوية فى هذا المضمار .. إذ استغل وقته فى العمل المفيد المثمر ، بعيدا عن لهو الشباب العاطلين . وطالما التقى شباب مكه الجادين فى حانوته ، حيث تدور الأحاديث حول الصيدوالحروب ، وملاحقة السهام للظباء، حتى تشل حركتها !! . وإصابة السهم للعدو فى حومة الوغى ، وأحاسيس الرامى بالزهو والفخر لدى إصابته العدو على البعد !! ،

وتوطدت الصلات المتينة لسعد بالأفراد العديدين الذين أنسوا إلى أحاديثه ، ووثقوا بمهارته ، وأمانته .

إسلامه :

لقد نأى سعد بسجيته الصافية ، ووعيه الروحى ، عن عبادة الأوثان ، أو التقرب اليها .

وبينما هو جاد فى عمله ، أدركه صديقه الكبير ، أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — الذى حدثه عن شئون شتى حول الدعوة الإسلامية ، والداعى اليها ، المشهود له بين شباب مكة بالأمانة والوفاء ، وبجميع الصفات الكريمةالتى تجمعت لديه ، دون سواه ، فكان المثل الأعلى لشباب مكة ؛

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يكن له سعد كل حب وتقدير .

تفتح قلب سعد للاسلام ، وانشرح صدره له .

واستبشر ، فها هى رؤياه واضحة تنير طريقه ،
إذ وجد نفسه فى منامه ، فى ظلمة لا يبصر شيئا ،
ولكن قمرا أضاء له الطريق ، فاتبعه ،

ولاحظ أن زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبا بكر الصديق قد سبقوه جميعا إلى ذلك القمر .

ولما قص سعد تلك الرؤيا على أبى بكر الصديق ، صاح فى رضا :

هيا ياسعد إلى رسول الله فى شعب « أجياد » وسوف تلتقى بمن تحبهم ويحبونك ، أذن الله لهم بمثل ماأذن لك ،

وشرح صدورهم للحق .. ولاح لهم القمر الذى لاح لك ،

وكنت وإياهم على موعد .. هيا سعد إلى رسول الله ..

وبادر سعد ، ومعه أبو بكر بالذهاب إلى شعب « أجياد » حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو إلى الإسلام ، مستخفيا ..

فأعلن سعد إسلامه ، فى خشوع المؤمن ، وطمأنينة المتيقن ..

فكان لسعد السبق فى الشرف التليد ، باسلامه فى صباه الباكر ، فهو فى مقدمة المسلمين الذين أسلموا فى بداية الإسلام .

أسلم سعد ، بعد أبى بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة ، وبلال ، وعبسة السلمى ، وخالد بن سعد بن العاص .

فهو سابع من أسلم ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وأول من أسلم من الفتيان ...

وقد لاقى سعد معارضة شديدة لاسيما من أمه التى كان بارا بها .. ، إذ هددته أن تدع طعامها وشرابها حتى تهلك جوعاً فيعير بها ، أو يتخلى عن دينه الذى إعتنقه !! .

ونفذت أمه تهديدها ، ماكثة يوماً وليلة لا تذوق طعاماً أوشراباً .. ، حتى

أدركها الإجهاد والانهيار ، وكاد يغمى عليها من شدة الوهن !!

ولكن سعدا قال لها فى تصميم المؤمن القوى :

والله لو كان لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت دينى الذى أعتنقه !!

وإزاء تصميم سعد ، وإصراره ، وتمسكه بما هداه الله إليه ، اضطرت أمه إلى نقض ما هددته به ، ورجوعها عما عزمت عليه !!

وكان من جراء ذلك ما نزل فى سعد وفى أمه ، من آية كريمة ، تجلو ما بين الابن المسلم ، وبين أبويه المشركين :

قال تعالى :

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

وتمسك سعد بالدين الاسلامى ، تمسكاً شديداً ، متبعاً تعاليمه ، بدقة ، سائراً على النهج السوى ، والطريق المستقيم ... وتألقت صفاته النادرة فى الاسلام ...

واكتسب صفات نورانية بعد إسلامه ، أضاءت الطريق للأجيال على تعاقب الزمان !!...

جهاده تحت راية الرسول القائد :

تقدم سعد طلائع المتحمسين للدين الاسلامى ، المقتدين برسول الله ..

تصدى سعد للمشركين الذين اعترضوا أصحاب الرسول ، وهم يصلون معه فى مواضع خفية ، بين جبال مكة ، بعيداً عن الأنظار ...

وعندما سخر أبو جهل ورفقاؤه المشركون من المسلمين ، وتهكموا على صلاتهم ، تناول سعد عظم بعير فضرب به وجه أحد المشركين ، فشجه شجة عنيفة ، أسالت دماءه ، وكادت تصيب منه مقتلا !!

فكان هذا أول دم راق فى الاسلام دفاعاً عنه ...

وتوالى جهاد سعد فى سبيل الإسلام ...

آثر سعد البقاء بجوار الرسول فى مكة لايغادرها ، إلا إذا غادرها الرسول ، ولم يرتض الهجرة مع المهاجرين إلى الحبشة ، بل ودع معهم أهله المقربين !!

ولما طلب منه أخوه عامر السفر معهم ، تفادياً لضغط المشركين المتزايد ، وتعذيبهم المسلمين ، وإيذائهم إياهم ، لم يجبه إلى مطلبه ، بل أصر على البقاء بجوار رسول الله ، متحملا كل صنوف الاضطهاد والعدوان من المشركين ...

ومن أنواع البلاء الذى ابتلى به المسلمون ، حصار المشركين لهم ...

إذ اتحدت كلمتهم ، على قطيعة المسلمين ، لا يبيعونهم ولايبتاعون منهم . ولا يزوجونهم ، ولا يتزوجون منهم ... كتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ...

وأحاطوا شعب أبى طالب بنطاق من الحراس ، يمنعون المسلمين ، من الخروج ، ويحولون بينهم وبين الناس !!

حوصر المسلمون رجالا ونساء ..، وأطفالا فى شعب أبى طالب . . وضيق عليهم الحصار ... فنفذ زادهم ، ولم يعد هناك طعام لديهم ، فخوت بطونهم ... واشتد جوعهم ... وتسلل الهزال إليهم ...

أما الأطفال فكانوا يئنون من وطأة الجوع ، ويشتكون وهم لايدرون ... ويبكون بكاء أليما ، يثير مكامن الأسى والشجن والحزن ... وتعصف الآلام المضنية بالأمهات !!

وارتقب المسلمون أن تنحسر الغمة ، وانتظروا من الله مددا .. ،

فإيمانهم بالله ورسوله نابع من قلوبهم ، لا يتزعزع أمام أى خطب أو بلاء !! .

وذات يوم أبلغ الرسول الكريم عمه أبا طالب بأن الله جلت حكمته ،وتعالت قدرته ، قد سلط الحشرة الضعيفة - الأرضة - على الصحيفة المنذرة بالحصار والقطيعة ، فلم تدع فيها إسما هو « الله » إلا ثبتته فيها ، بينما نفت منها الكلمات الجائرة المتعلقة بالعدوان ، والتجبر ، والقطيعة !!

وخرج أبو طالب لينبىء أشراف قريش أن الله تعالى رب محمد صلى الله عليه وسلم ، قد سلط — الأرضة — على صحيفتهم ، فلا عهد ، ولا ميثاق ، ولا ظلم ، ولا قطيعة !! .

وسرى الخبر سريان البرق ، فعجب الناس ، إذ رأوا بأعينهم ما أذهلهم!!

وتصاعدت أصوات لاحصر لها : مزقت الصحيفة ، ورفع الحصار !! .

وهتف سعد مع الهاتفين « الله أكبر — الله أكبر » .

وارتفعت الأصوات المؤمنة عالية ، حتى بلغت عنان السماء !!

اعتز سعد بقياده الرسول ، وسار فى إثره ، متبعاً تعلياته بأمانة ودقة .

عقد الرسول القائد أول راية فى السنة الأولى للهجرة ، لعبيدة بن الحارث ، فى ستين من المهاجرين ، وأمره بالمسيرة إلى بطن رابغ ، فبلغ ثنية المرة .

ولما التقوا بالمشركين البالغ عددهم مائتى قرشى ، بتحريض أبى سفيان ، رمى سعد يومئذ أول سهم فى سبيل الله تعالى .

وقبيل انقضاء العام الأول للهجرة ، عقد الرسول القائد ، الرايةلسعد ، فخرج إلى الخرار ، وبامرته عشرون رجلا من المهاجرين ،، للحاق بقافلة تحمل تجارة قريش .. وشارك سعد بسرية عبد الله بن جحش الذى غنم أول غنيمة فى الإسلام.

وكان سعد أحد الشهود الذينوقعوا علىوثيقة الهدنة فى غزوة الحديبية مع كل من أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهل ، رضوان الله عليهم .

ولقد أرسل الرسول القائد سعدا قبيلنشوب معركة بدر فى مهمة استطلاعية إلى ماء بدر .. وكان فى تلك المهمةمع على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، والزبير ابن العوام — رضى الله عنه .

وكانت حصيلة تلك المهمة أسيرين من قريش ،

استنبط الرسول من استنطاقهما أن قريشا وراء الكثيب بالعدوة القصوى ، وأن قوتهم بين التسعمائة والألف . وأنهم يستهدفون منعه من أداء رسالته ، وتهديد حياته الشريفة . أما سعد فقد اشتد فى قتاله المرير يوم بدر مناضلا نضالا بطوليا .

وفى أحد شغل المسلمون بجمع الغنائم والأسلاب ، إثر إنتصارهم الأول فى تلك الغزوة ، حيث ترك الرماة أماكنهم ، مخالفين أمر الرسول القائد ، وتعليماته بصدد القتال .

فارتد المشركون من خلف ظهور المسلمين .. وتعرض المسلمون لكارثة مروعة ، وخسائر جسيمة فى الأرواح ، لولا قدرة الله تعالى ، وصمود قلة من المسلمين صمودا مشهوداً .

ولقد أخذ سعد على عاتقه الدفاع عن الرسول ، معرضا حياته فداءه ، بعد إذ شاهد الرسول قد شج وجهه الكريم ، وكسرت رباعيته ، وسالت الدماء الطاهرة من جراحه ، فاختلطت آلام سعد بسخطه الشديد على أقوام عميت قلوبهم وهم يحاربون بوحشية للحفاظ على استبدادهم ، واستعبادهم للناس ، وعبادتهم للاصنام الصماء التى شادوها بأيديهم !

ولم يتوان سعد لحظة عن الرمى بالنبل دفاعا عن الرسول ، والرسول الكريم يناوله النبل ، مترصدا إصاباته قائلا : « إرم فداك أبى وأمى » .

قال على بن أبى طالب :

« ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدى أحدا بأبويه إلا سعدا » .

كانت سهام سعد تتوالى منطلقه إلى صدور المشركين ....

أما نداء الرسول ، فكان يلهب عزيمة سعد وحماسه ....

ويصيح بفيض التأثر العميق :

« يفدينى رسول الله بأبيه وأمه . ياويل سعد إن لم يمت دون رسول الله ! » .

وهكذا تعالى صياح سعد ، وسهامه يتوالى اندفاعها !!

والمشركون يبحثون عن الرسول ، والمؤمنون يناضلون تلك القوة العاتية .

وكان لدفاع سعد ، وبعض الصحابة عن الرسول ، واستبسالهم فى قتالهم ، الأثر الحاسم فى تحطيم غرض قريش البعيد كل البعد عن الحق والإنسانية ، الممعن فى الضلال والجاهلية .

كان الرسول يتولى شئون الدعوة الإسلامية ، فيضع الخطط ، ويدعم مواقف المسلمين ، ويرفع الراية الإسلامية منتصرة خفاقة .

لذلك كان الرسول فى حاجة إلى حراسة ليلية على حياته الغالية .

وذات ليلة قال الرسول :

« ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة » .

ولشفافية سعد الروحية ، واتصاله الروحى القوى بالرسول القائد ، أقبل سعد ومعه سلاحه لحراسة الرسول قائلا : « يارسول الله ، إنى قد وقع فى نفس ماشغلنى عليك ، وما خشيت منه لأمتك ، وحياتك ، فهأنذا قد أقبلت لتأمرنى بما تريد ولا تحمل أمر حراستك فى منامك ، فأكون قد أديت لله ولرسوله حق ماأولياني من نعمة الإيمان ، وما حبوانى به من فضل وامتنان » .

فدعا الرسول له .

وشهد سعد بدرا وأحدا والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة ، فشهد المشاهد كلها مع الرسول ، وأسهم فى المعارك كلها بحماس عارم ، وفدائية نادرة .

علاقة سعد بأبى بكر :

كان أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — من أصدقاء سعد ، يرتبطان ارتباطا وثيقا بالثقة ، والمحبة المتبادلة . يجتمعان دائما على خير . ولما أسلم أبو بكر الصديق ، دعا إلى الله تعالى ، وإلى الإسلام ، الذين وثق بهم من قومه .

فأسلم بدعائه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ،

وسعد بن أبي وقاص ، وطلحه بن عبيد الله .

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، تزاحمت الأحداث على أمير المؤمنين أبي بكر الصديق — فاحتاج إلى مشورة ذوى الرأى من كبار الصحابة ، وكان سعد من ذوى الشورى المقربين ، مستشارا أمينا لصديقه العظيم ، يمينه بالرأى السديد ، ويشير عليه بما فيه صالح الإسلام والمسلمين .

روى المؤرخون استعانة أبي بكر بمشورة سعد ، عند استدعائه له مع عمر وعثمان وعلى ، وأبى عبيدة وطلحة والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من كبار الصحابة ، لاستشارتهم فى أمر استنفار العرب إلى الروم بالشام .

فأقر الحاضرون جميعاً هذا الرأى ، قائلين :

« ما رأيت من رأى فامض فانا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك ، ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك ، وإجابتك » .

ولقد ولى أبو بكر الصديق سعدا على صدقات — هوزان — بنجد — لثقته فى عدله وأمانته .

موقف العرب فى فارس ، قبيل تحرك سعد بقواته إليها :

كان لفارس ، فى مفهوم العرب ، أهمية طاغية ، لموقعها الخطير ، وموقفها الحربى الدقيق ، وعلاقاتها المتوترة ، المهددة بالانفجار الشديد فى أى وقت من الأوقات !!

بدأت تلك الخطورة الرهيبة، عندما ارتدت قبائل عربية عديدة منها — ربيعة — فى منطقة البحرين ...

كتب — العلاء — إلى من ثبت على إسلامهم ، من بكر بن وائل ، ومن بينهم — المثنى — ليعينوه على مكافحة المرتدين ...

فأعان المثنى — العلاء — فى المهمة الشاقة ، مرتقياً الصدارة فى قتالهم ، وتضييق الخناق عليهم ..

ولم يكتف المثنى بحصار أولئك المارقين المرتدين، بل تابع مسيرته ، شمالا على شاطىء الخليج العربى ، ليقاوم الفرس الذين غرروا المسلمين بدسائسهم الوضيعة ، وزينوا لهم الردة ، وأججوا الفتن فى منطقة الخليج العربى .. فواصل القائد المثنى زحفه المقدس بقواته إلى الشمال ، حتى تم له احتلال — القطيف — أعظم مدن البحرين .. بعد أن شتت شمل الفرس ، وعمالهم ..

وتابع المثنى تقدمه حتى بلغ مصب دجلة ، والفرات ، فى الخليج العربى .. وتساءل عن ذلكم القائد العربى — الخليفة أبو بكر إذ قال :

« من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟! »

فأجابه سيد أهل الوبر : قيس بن عاصم :

« هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى » .

وكان خالد بن الوليد ، يثق فى كفاءة المثنى ، ومقدرته الحربية ، وقيادته الممتازة ، ولا غرو فقد قاتل المثنى تحت لواء خالد فى كل معاركه التى خاضها فى العراق . وكان خالد يستعين بالمثنى فى حضوره ، مستخلفاً إياه فى غيابه .

تولى المثنى قيادة جيش المسلمين ، فى هجومه على جيش الفرس بقيادة هرمز جازويه .. فخاض قتالا مريراً ، انتصر فيه ، وطارد الأعداء إلى أبواب — المدائن ..

ونزلت أنباء الهزيمة المروعة بكسرى نزول الصاعقة ، وأودت الكارثة المباغتة التى حلت ببلاده بحياته ..

عم الاضطراب ، وسادت الفوضى بلاط فارس ..

واتجه المثنى إلى المدينة ليخبر أبابكر الصديق ، عن وقائع المسلمين، وليستأذنه فى الاستعانة بالتائبين النادمين من المرتدين ..

وصل المثنى إلى أبي بكر ، ورآه على فراش الموت ، يجود بأنفاسه الطاهرة الأخيرة ..

بيد أن الخليفة العظيم أبا بكر الذى ظل يجاهد فى سبيل الله ، حتى آخر رمق فى حياته ، اهتم بأقوال المثنى ، واقتنع برأيه .. واستدعى أبو بكر، عمر بن الخطاب الذى استخلفه ، وأوصاه بامداد المثنى بالمقاتلين ..

فكان أول عمل لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين ـــ استنفار الناس، للانضواء تحت لواء المثنى ..

ناشد المثنى رجاله أن يستبسلوا فى قتال الفرس ، مهوناً أمرهم عليهم ، محبباً إليهم الجهاد فى سبيل الإسلام .. أثر المثنى فى جنوده تأثيراً كبيراً ولا غرو فهو المؤمن للقوى، والشاعر الموهوب ..

سار المثنى بقواته حتى أدرك الحيرة ، حيث عمت الحرب الأهلية ، ودبت الفوضى بين الفرس ، من جراء الطامعين فى العرش . .

ولما تولت ـــ بوران ـــ الملك ، عاونها وزيرها ـــ رستم ـــ الذى أثار الأقوام على المسلمين ، وحشد الجنود لقتال المثنى . .

لذلك آثر المثنى الانسحاب من الحيرة إلى ـــ خفان ـــ قرب الكوفة ، حتى لا يؤتى من خلفه . .

وتوالت انتصارات المسلمين بعد عدة إلتحامات ، ومواجهات، مع الفرس.. وأسروا قائدهم ـــ جابان ـــ فأسرع الفرس إلى حشد جيش كبير بقيادة ـــ بهمن جازويه ـــ تجمع الفرس فى «قس الناطف» بينما تجمع المسلمون فى «المروحة» يفصل الفرات بينهم وبين العدو .

عبر أبو عبيد قائد جيش المسلمين نهر الفرات ، ولم يدع الفرس يعبرون إليه ، بالرغم من تحذيرات ذوى الرأى من المسلمين !

وفور عبور المسلمين للنهر ، هاجمهم الفرس هجوماً عنيفاً ، وشتت الفيلة الفارسية الخيول العربية ..

ورشق الفرس المسلمين بالنبل ، فقتلوا منهم رجالا عديدين ..

ووثب أبو عبيد على فيل أبيض ، وقطع حزامه ، فوقع من فوقه جنود الأعداء ، وهوى بسيفه على خرطوم الفيل الذى هاجم أبا عبيد ، ضارباً إياه برجله ، حتى أوقعه ثم وقف فوقه ، مخلفا إياه جثة هامدة ..

إنهارت معنويات المسلمين وهم يرون قائدهم شهيدا تحت أقدام الفيل .

وتتابع سبعة من ثقيف ، كلهم يأخذ اللواء ، ويقاتل الأعداء حتى يستشهد ، حتى أخذ اللواء المثنى بن حارثة الذى نادى : « يا أيها الناس ! دونكم فاعبروا » وبذلك استطاع تخليص البقية الباقية من جيش المسلمين .. ، بعد أن حال هو ورجاله بين الفرس وبينهم..

وأصيب المثنى فى موقفه البطولى بضربة رمح ، أثبتت فيه حلقاً من درعه.. وكان المثنى آخر من عبر ، بعد تخليص قواته من الغرق والقتل ، وانسحب المثنى بقواته إلى « الحيرة » ثم إلى « أليس » جنوبا ليفلت من مطاردة الفرس .. ثم أرسل يطلب مدداً من عمر .. وتتابعت على المثنى الإمدادات من المدينة ، فحشد جيش المسلمين فى « البويب » — نهر فى منطقة الكوفة ، يأخذ من الفرات ، وهناك التقى جيش المسلمين ، بجيش الفرس ، واشتبك الطرفان فى قتال مرير ، ظل محتدماً طوال ساعات دامية ..

وحمل المثنى بنفسه على القائد الفارسى « مهران » حتى دخل ميمنته . اضطربت صفوف الفرس ، واندفعوا إلى حماية قائدهم . وما أن تراجع قلب الفرس ، حتى حملت ميمنة قوات المثنى وميسرتها .

لذا أسرع الفرس إلى النهر لائذين بالفرار ، خوفا من خطورة التطويق المحدق بهم .

سابق المثنى ، الفرس المنسحبين إلى الجسر ، وقطع خط رجعتهم الوحيد مكبدا إياهم خسائر فادحة فى الأرواح تقدر كما قيل بمائة ألف قتيل .

وبالرغم من انتصار المثنى، فقد اعترف بتسرعه فى قطع الجسر على الفرس . إذ أفنى عمله معظم قوات الفرس ، ولـكنه فى ذات الوقت كبد المسلمين خسائر فادحة فى الأرواح !!..

وظل المثنى ، متساميا بروحة العالية عن آلامه المزايدة بسبب جراحه التى أصيب بها من ذى قبل فى حومة الوغى ..

ويعد انتصار المثنى فى معركة « البويب » ، تمهيدا لمعركة « القادسية »

أما الفرس فقد تنبهوا مؤخرا للخطر المحدق بهم ، لما هم عليه من نزاع ، وتفرق ..

لذلك وحد الفرس كلمتهم ، واجتمعوا تحت لواء ، مليكهم الشـاب : « يزدجرد بن شهريار » ..

أثار تجهز الفرس ، واستعدادهم ، قرى العراق ، ومدنه على المسلمين ..

بادر المثنى بالانسحاب إلى تخوم شبه الجزيرة ، وسار بجنوده حـــتى نزل بـ« ذى القار »..

وكتب المثنى إلى عمر يذكر له حقيقة الموقف فى العراق ..

فقال عمر : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب !!»

وصلت كتب عمر إلى عمـاله لتعبئة المقاتلين المسلمين ، وهرع المحاربون الشجعان يلبون النداء .

وخرج بهم عمر إلى مكان قريب من المدينة على طريق العراق . ليقودهم إلى الحرب ، ولكن أصحابه من ذوى الرأى ، أشاروا عليه بالبقاء بالمدينة ، للتعبئة ، وإسداء الرأى .. وطلبوا منه تعيين قائد كفء من أصحاب الرسول ، ليتولى القيادة العامة لجيوش المسلمين .

ترشيح قائد للجيوش العربية المتحركة إلى فارس:

جمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الأقوام ، وخطب فيهم قائلا :

« أيها الناس ! كنت قد عزمت على السير معكم ، بيد أن ذوى الرأى منكم صرفونى عن عزمى ، وآثروا أن أبقى بالمدينة أمـــدكم بالمدد والرأى ، وأمر المسلمين شورى بينهم ، ليس لعمر أو لغير عمر أن يستبد به !! وقد رأيت ذلك الرأى وآثرت أن أقيم وأبعث رجلا ، فأشيروا على برجل !!... »

فكر المسلمون خاصتهم وعامتهم فى اختيار قائد كفء ، يتولى قيادة المسلمين أمام جيوش الفرس العاتية .

اهتم المسلمون بذلكم القائد المرتقب ، ليقودهم إلى بلاد فارس ، حيث الاستعدادات العسكرية الرهيبة تذود عن قصورهم الباذخة التى تنوء بالتحف الذهبية ، وتموج بوسائل الترف .

وتتشدد القوى العسكرية فى الحفاظ على مصادر نعيمهم ، ومنها الفاكهة النادرة والنباتات الوفيرة ، النامية فى حدائق تبهر الأنظار ، باتساع رقعتها ، وحسن تنسيقها ، واختيال القوارب عـــلى صفحة قنواتها العديدة ، المتفرعة من أنهـار عذبة كبيرة ..

ويحتشد المقاتلون دفاعا عن كسرى ، وعن صولجانه ومجوهراته .

فتستعد الجيوش الجرارة لتذود عن ذلك العز الفاره ، وتحمى القوانين الجائرة التى تتحكم فى الأفـراد ، جاعلة من بينهم عبيدا لمليكهم ، وأعوانه ، يرسفون فى أغلال العبودية ، ويئنون تحت وطأة ظلمها وهوانها !!

حقا أنها لمهمة صعبة ، مهمة اختيار قائد عام يتولى قيادة الجيوش الإسلامية التى تتولى قتال الفرس ، وتصلح أمورهم ، وترتقى بهم فكريا وروحيا ، وتخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الإسلام الذى غمرهم ضياؤه ، وشملتهم هدايته .

اختيار سعد قائداً عاما لجيوش المسلمين :

بينما استمر المسلمون فى تصوراتهم ومشاوراتهم ، وصل إلى عمر بن الخطاب

كتاب من أحد عماله ، أسعده مافيه ، فآثر تلاوته على الناس ، ارتفاعا بروحهم المعنوية إذ كان ذلك الكتاب من سعد بن أبي وقاص ، ينبيء أمير المؤمنين ، باختياره ألف فارس من ذوى القوة والرأى ، ليوجههم الخليفة إلى الجهاد .

ولم يكد عمر يتم رسالته ، حتى إرتفع الصياح قويا هادرا :

« وجدته ياعمر .... وجدته !!

هو الأسد عاديا !! سعد بن مالك ، خير من يقود جنود الله ، ويحبط خطط الأعداء !! »

وافق عمر مقتنعا .. إذ التقى بالحل الذى أرضاه !

ثم أسرع بالكتابة إلى سعد ، مستدعيا إياه .

أقبل سعد على المدينة التي تجد فى إعداد الجيوش ، وتموج بالحماس .. ،وتستعد للإنطلاق إلى بلاد كسرى ..وأسرع سعد إلى الخليفة الذى استقر رأيه على تعيينه قائدا عاما للجيوش العربية المتجهة إلى فارس .

وأوصى عمر سعدا :

« ياسعد بن مالك ! لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ، فان الله لايمحو السيء بالسيء ... ولكن يمحو السيء بالحسن .. وليس بين الله وبين أحــد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء .. الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافيه ، ويدركون ماعند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتزمه فالتزمه ، وعليك بالصبر واليقظة .. وتوكل على الله . وسر على بركة الله . وما النصر إلا من عند الله »

وعى سعد وصية الخليفة .. وعمل بها ..

جهاد سعد فى فارس :

وصل سعد بجيشه إلى موضع « ذى القار » حيث رابض جيش المثنى ..

أما المثنى فقد رحل إلى دار البقاء ، متأثرا بجراحه ، مخلفا ذكرى عاطرة ، وجهاداً خالدا ..

لم يدرك سعد المثنى الذى ترك له وصية قيمة ، تنير له الطريق فى حرب الفرس ، ضمنها خبراته وتجاربه فى قتالهم يذكر فيها لسعد : ألا يقاتل عدوه وعدوهم من أهل فارس إذا إستجمع أمرهم وماؤهم فى عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مـــدرة من أرض العجم ، فان يظهر الله المسلمين فلهم ماوراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة يكونون أعلم بسبلهم وأجرأ على أرضهم أن يرد الله الكرة عليهم .

واعتنى سعد بتنفيذ وصية المثنى ، وترحم عليه كثيرا .

وجعـــل أخاه ـــ المعنى ـــ على عمله ، وخطب سلمى أرملة المثنى ، وتزوجها ..

بادر سعد إلى تنظيم جيشه تنظيما دقيقاً ، استعداداً لخوض المعركة ... جاعلا لكل عشرة رجال عريفا ، ثم جعلهم فرقا ـــ كل فرقة عليها أمير ـــ ثم عباهم تعبئة منظمة ، إذ أتم تشكيلهم فى تنظيم متدرج ، معينا الطلائع والمجموعات :

ـــ للاستكشاف ـــ والميمنة والميسرة ، والقلب ، والمشاه ، والفرسان .. واضعاً فى اعتباره ، التشدد فى الضبط والربط ، مراعياًعدم تمكين العدو من مباغتة قواته ..

واهتم سعد بالشئون الإدارية فى جيشه ، فعين المسئولين عن :

أولا : الوعظ والإرشاد .

ثانياً : القضاء ، ومن اختصاصاته قسم الفىء .

ثالثاً : الترجمة ، لاسيما من الفارسية إلى العربية .

رابعاً : الكتابة ، وتسجيل الشئون الهامة .

واصل سعد مسيرته إلى القادسية .. حيث أرسل العيون ليحيطوه علما بأنباء الفرس ..

وأرسل بعض المفارز للاغارة على المناطق المجاورة ..

وأوفد الرسل من رجالات المسلمين إلى كسرى ، ليوضحوا له الغرض من مجيء العرب إلى بلاده ، يعرض ذلك مخاصاً فيما يلي :

أولا : إما الاسلام : وفيه سلامتهم وهدايتهم ، وتركهم فى بلادهم وشأنهم — لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم .

ثانياً : أو دفع الجزية : التى تجعلهم فى ذمة المسلمين ، يرعون حقوقهم ، ويحفظون لهم عهدهم ، ماداموا على وفائهم للذمة والعهد.

ثالثاً : أو الحرب : وفيها قهرهم ، والاستيلاء على بلادهم ، والمسلمون بين شهداء لهم الجنة ، أو منتصرين يواصلون جهادهم فى سبيل الله تعالى .

وعادت المفارز كلها بالفتح والغنائم ..

ولم يرتض كسرى الاسلام ديناً ..

ولم يقبل دفع الجزية ..

وحشد كسرى قواته للحرب تحت قيادة رستم ..

أما سعد فقد أمهل الفرس ثلاثة أيام ، ليستقروا على رأى نهائى ..

حاول رستم إطالة أمد المفاوضات ، آملا تفادى الحرب .. لقد ملىء قلبه رعباً من الجنود المسلمين ، فصار يخشى شدة بأسهم . وعنف قتالهم .. وأيقن أن نهايته ستكون على أيديهم ..

جمع رستم أشراف أمته وقواده ، وتناقشوا فى موقفهم ، فقال لهم رستم .. إنه يرى أن يرسل إلى سعد ليبعث لهم رجلا من قومه يكلمونه ويكلمهم .. فوافق القوم . . وبلغ الرسول معسكر المسلمين ..

وتشاور سعد مع رجاله ، فانهم لاينسون أبداً موقف كسرى من وفدهم ،

وسخريته اللاذعة منهم ، وتعاليه العجيب عليهم !! إن كسرى قد أعماه الغرور عن الحقيقية ..

لقد فاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل كتاباً مع عبد الله بن حذيفة من ذى قبل ، إلى ملك فارس ، ليدعوه إلى الإيمان بالله وحده ، لا شريك له ، مكلفاً إياه إبلاغ دعوته إلى أمته ، فان تولى ، فعليه إثم نفسه ، وإثم من معه من الناس .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى الملوك الآخرين فى ذات الموضوع العظيم ..

ولكن ملك فارس فى ذاك الوقت، مزق الكتاب ، وكتب إلى نائبه «بازان» على اليمن ، أن يأتيه بالرسـول .. فارسل بازان إثنين من أعوانه ، لتنفيذ أمر مليكه ..

فلما قدما على الرسول كدره تخنثهما وخيلاءهما .. فلما سألهما رسول الله عن الذى أمرهما بما جاءا من أجله .. أجابا بأنه — ربهم — يقصدان كسرى ..

فقال لهما الرسول : « أبلغا صاحبكما أن ربى قتل ربه كسرى فى هذه الليلة» ..

ويقول الرواة أن تلك الليلة كانت ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع مع الهجرة ..

فرجعا إلى بازان ليخبراه بما سمعاه من رسول الله ..

وسرعان ما أنبىء «بازان» بمقتل كسرى .. لقد سلط الله عليه أقرب الناس إليه : ابنه «شيرويه» .. قاتل أبيه الملك !!

وتحقق قول رسول الله ، فأسلم بازان وكثيرون معه !!

فما بال يزدجرد — كسرى — لايثوب إلى رشده ؟!

فهو الذى هدد سعداً على مسمع من رجاله المسلمين الذين استهتر بهم ، وكاد يقتلهم !! وأمر بتحميل أشرفهم عاصم بن عمرو حمل تراب !! فعاد عاصم ومعه رجال وفده إلى سعد ..

وما أن التقى عاصم بسعد حتى صاح مهللا :

« أبشر ياسعد . فقد جئنا إليك بأرض فارس !! فتوكل على الله ، وما النصر إلا من عند الله !! » .

استقر رأى سعد ، ورجاله من ذوى الرأى على إيفاد ربعى بن عامر ، بمفرده .

وكانت مواجهة مثيرة بين ربعى وحده ، وبين رستم بصولجانه ، وقد تمدد على سريره الذهبى محاطا بحاشيته ، وعبيده ، ومظاهر عظمته !! ، واستعداداته الرهيبة !! ...

انتظر « رستم » مقدم رسول سعد ، وهو على تلك الحالة ظنا منه أن الرسول القادم سوف يتأثر بما يرى ، وتنتابه الحيرة ، ويستبد به الخوف ، فيؤثر بدوره فى الجنود المسلمين ، ليغادروا فارس ، إيثارا للنجاة !! ..

ولكن ربعى حير « رستم » وأعوانه ، وأذهلهم بما أبداه من أفعال وأقوال !! ..

استمر ربعى على فرسه ، حتى بلغ أدنى البسط ، ثم ترجل بعد إذ وقفت فرسه على البساط ، وربطها فى وسادتين مزركشتين . ثم تقدم متقلدا سيفه ، متوكئا على رمحه ، ممزقا به البسط والنمارق أثناء سيره !! ..

ولما اقترب ربعى من السرير الذهبى ، سأله رستم عن سبب مجىء العرب إلى ديارهم .

فأجاب ربعى :

« جئنا لنخرجكم من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد أرسل رسولنا بالحق إلى الناس كافة . فمن قبل ذلك منا قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه ، أبدا حتى نفضى إلى موعود الله »

ولما سأله رستم عن « موعود الله » .

أجاب ربعى بأنه الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

وعمد « رستم » إلى المراوغة ، واطالة أمد المفاوضات ، فطلب من ربعى امهاله حتى ينظر فى الأمر .

ولكن ربعى فاجأه بقوله :

« إن مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاثة أيام .. فانظر فى أمرك وأمرهم ! واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل : اختر الإسلام ، وندعك وأرضك ، أو الجزية فنكف عنكم وننصركم إذا احتجتم إلينا ، وإما الحرب فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع حتى تكون أنت البادىء . وإنى كفيل بذلك عن أصحابى ! »

قال رستم ساخرا « أسيد أصحابك أنت ؟! »

قال ربعى لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد ، بعضهم من بعض ...

غادر ربعى المكان ، تاركا رستم وأعوانه ، وقد استبد بهم الذهول والاضطراب !

رأى رستم أن يمد فى أجل المفاوضات . وأرسل فى طلب رسول لمناقشته ! .

ولكن سعدا تعمد إرسال رسول آخر ، ليثبت للفرس أن المسلمين كلهم سواء فى الحكمة ، وعمق التجربة ، وأصالة الرأى .

وأرسل سعد ، حذيفة بن محصن .

فتوجه حذيفة إلى معسكر الفرس ، وظل راكبا فرسه فوق البسط ، حتى وقف أمام رستم .

أمره رستم بالنزول ولكنه أبى ، قائلا فى عزة :

ولم النزول أيها الرجل ؟! ألا أستطيع أن أحدثك إلا فوق الأرض ؟!! لسانى طوع إرادتى ، وجنانى معى أينما كنت !!.

ولما سأله عن تخلف ربعى ، أجاب أن لكل عمله ونوبته !

ولما طالبه رستم باطالة المدة حتى يروا رأيهم، صاح حذيفة :

« لا ، ليس لكم الا ثلاث من أمس !! ... »

استبد اليأس والغيظ برستم ، وأشار إلى حذيفة بالانصراف ، فغادر المكان رافعا سيفه ، مسرعا بجواده !!..

وفى الصباح طلب رستم من سعد رجلا ثالثا !!

اختار سعد المغيرة بن شعبة ، وأوفده الى الفرس .. أقبل عليهم ، وكانوا فى زيهم الرسمى ، ملابسهم فى الاحتفالات الكبرى !! فارتدوا الثيـــاب المنسوجة بالذهب ، وعليهم التيجان !! مدوا أمامهم البسط الطويلة لمسافات بعيدة ... وأحاطوا أنفسهم بالجنود المسلحين ، والفيله الرهيبة !!

رأى المغيرة رستم جالسا على سريره ، فاتجه إليه ، وجلس معه على سريره فأسرع الحرس إليه وأنزلوه!!..

وعندما لمح المغيره العبيد واقفين ، وقد نطقت وجوههم بذل العبودية ، وهوانها فى رحاب سيدهم رستم ، توجه إليهم قائلا :

« كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم !! اننا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضا الا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نواسى .. وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض أوأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ، ولكن دعوتمونى ... اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول !

وأنهى الرسول العربى كلامه ، مطالبا أياهم بواحدة من ثلاث :

الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب !

لكن رستم أخذته العزة بالإثم ، فصاح مهددا متوعدا ، مقسما بالشمس والقمر :

« لا يرتفع الضحى غدا حتى نقتلكم أجمعين !! . . »

إيثاراً للسلام أرسل سعد ثلاثة من وجوه قومه إلى رستم ، لابلاغه رسالته التالية :

« إن الجوار يحفظ الولاء ، وانى ادعوك إلى ما هو خير لنا ، ولك العافية أن تقبل ما دعاك الله اليه ، ونرجع إلى أرضنا وترجع الى أرضك ، وبعضنا من بعض ، الا أن داركم لكم ، وأمركم فيكم ، وما اصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا ، وكنا لكم عونا على احد إن أرادكم ، أو قوى عليكم ، واتق الله يارستم ولا يكون هلاك قومك على يديك ، فانه ليس بينك وبينى أن نغبط به الا أن تدخل فيه ، وتطرد به الشيطان عنك ، وتجيب إلى الإسلام » . .

ولكن رستم استمر يضرب الأمثال التى لاصله لها بالواقع ، ساخرا منهم ، مهددا اياهم !!

عاد رسل سعد إليه ، ليستعد للحرب .

أما رستم فقد استعد لخوض غمار المعركة .

ولقد رتب قواته . وجعل على مقدمته الجالينوس فى أربعين ألفا — والهرمزان على ميمنته ، ومهران على ميسرته ..

انتظم المسلمون فى مواقعهم !

ناشد سعد الخطباء والشعراء أن يثيروا الحماس ، ويهزوا المشاعر ويؤججوا الحمية فى المقاتلين العرب .

استمع المقاتلون الى الخطباء ، والشعراء ، بشغف ، وحماس !! ..

ثم قرأ سعد والمسلمون معه سورة الانفال ؛ وبقراءتها المباركة ارتفعت الروح المعنوية للمقاتلين إلى الذروة .

تاقت نفوسهم إلى النضال ، والقتال ، وهانت الدنيا عليهم ، فى سبيل النصر أو الاستشهاد ..

انهم لمقتنعون تماما بقتالهم ، مقدرين المسئولية الملقاة على عاتقهم ، . موقنين بالمهمة العظيمة التى يقومون بها ، مندفعين إلى تحقيق الرسالة النورانية ، التى انتدبوا لها ، مستعدين للجهاد لآخر نسمة فى حياتهم من أجل الدعوة الإسلامية !

وبالرغم من شدة مرض سعد ، فانه أشرف على المعركة ، وأدارها بكفاءة وبقظة ، من قصره ، متابعا تطورات القتال ، ومشيرا بالخطط الدقيقة ومحذرا من التورط فى المآزق ، قائدا جنوده فى النهاية إلى النصر المبين ! .

لقد جعل سعد بينه ، وبين قواته ، علامات البدء ، واشارات لخوض المعركة .

فآذنهم أنه إذا كبر التكبيرة الأولى ، فلهم أن يكبروا ، ويستعدوا .... فاذا كانت الثانية ، فيكبروا ، ويأخذوا أهبتهم وحذرهم ، ويتمون عدتهم .

فاذا كانت الثالثة ، فليكبروا فى قوه وعزيمة ، ويقاربوا العدو للقتل ، ويرمونه بالنبل ! .

فاذا كانت التكبيرة الرابعة ، فليكبروا ، وليزحفوا ، حتى يلتحموا به !

واستعد سعد للصيحة . ونادى للبيعة على الفداء ، والاستعانة بالله تعالى ، والقتال بعزيمة جبارة وعقيدة راسخة حتى يتم الله نصره لجنده ،

وسرى صوت سعد : الله أكبر

فكبر المسلمون خلفه ، وأسرعوا الى صفوفهم .

ومرت مدة ثم هتف سعد :

الله أكبر .

فتهيأ الناس ، واستعدوا .

ثم كبر سعد التكبيرة الثالثة .

فخرج غالب بن عبد الله طالبا الطعن والنزال !

فبرز له هرمز ، وكان متوجا ، يرتدى الملابس الفاخرة .

واستمر القتال بينهما عنيفا .

وكان غالب يشتد فى ضرباته . واحس هرمز باقتراب مصرعه . فاستسلم . فقاده غالب أمامه ، حتى سلمه الى سعد فى قصره . ثم عاد إلى الميدان لاستئناف القتـــال ! .

واقعة القـادسية :

أولا : يوم أرماث :

فور سماع المسلمين للتكبيره الرابعة ، التحموا بجيش الفرس . وعلت صيحات المسلمين بالتكبير .. وعنف قتالهم .

وحمى الوطيس . واشتد الضرب والطعان .

وكان بدء المعركة فى شهر محرم من العام الهجرى الرابع عشر ، وهنالك بلغ تعداد المسلمين ثمانية وثمانين الفا .

وزاد تعداد الفرس عن مائة الف مقاتل .

فى تلك الموقعة استخدم الفرس الفيله الحملة بالصناديق والرجال ، وعلى الفيله تجافيف الحديد ، والقرون بجلله بالديباج والحرير . ، وحول الفيله الرجال والخيول ...

حمل أصحاب الفيله الفارسية على قبيلة ـــ بجيلة ـــ العربية ، فدب الذعر فى خيولها . فجفلت .... وتشتت شملها بعد ادبارها ...

أما كتائب المشاه ، فقد تفرقت صفوفها ، واختل تنظيمها اختلالا مريعا ، وتكبد المشاه خسائر فادحة .

ولكن المسلمين صمدوا أمام كل تلك الاهوال .

بعد الهلاك المروع الذى حاق ببجيلة ، أمر سعد — بنى أسد بالتقدم ، والتصدى للعدو ، ومقاتلته بضراوة عنيفة ....

فأذعنوا للأمر . وانطلقوا لشد أزر بجيلة ....

ولكن الفيلة الفارسية ، استمرت فى عدوانها الشديد .

واشتعلت المعركة اشتعالا مخيفا ، وتصاعد خطرها رهيبا مدمرا .

أرسل سعد إلى عاصم بن عمرو ليتدارك الموقف الخطير . فأمر رجاله بتسديد سهامهم إلى راكبى الفيلة ، ثم انتدب أفراداً ليقطعوا أحزمة الفيله .

وتم العمل الفدائى سريعا . فتساقط من فوق الفيله راكبوها الموجهون لها .

داست الفيله قادتها ، ومن نجا منهم لم يسلم من الطعان .

أشاعت الفيلة الفوضى بين صفوف الفرس ، وهى تجد فى الفرار .. وسهام المسلمين قد رشقت فى اجسادها .

وفى ظلمات الليل ، وتحت ستاره ، أتم المسئولون عن الشهداء والجرحى نقلهم الى العذيب — الذى يبعد عن القادسية بأربعة أميال — حيث دفن القتلى - وتولت النساء شئون تمريض الجرحى .

ويعرف اليوم الأول العصيب من أيام معركة القادسية بيوم « أرماث » .

ثانيا : يوم اغواث :

أما اليوم الثانى من أيام القادسية فيعرف بيوم « أغواث » .

فى هذا اليوم توالى وصول الامدادات من الشام إذ أقبل خمسة آلاف فارس

من بنى ربيعة ومضر ، وألف من اليمن . فارتفعت الروح المعنوية للمقاتلين المسلمين ، اذ أيقنوا بالنصر على الفرس . فتساموا بحماسهم فوق مشاعر الأسى والألم .

وأقبل القعقاع بن عمرو فى اوائل المدد ، متحمسا للقتال ، داعيا اليه .

هتف القعقاع عاليا : هل من « مبارز » . !!

ودوى صوته كالرعد فى صفوف الأعداء !!

فخرج اليه « بهمن بن جاذويه » من أكابر الفرس فى ثيابه الموشاه ، واعتداده بنفسه . .

خف القعقاع إلى مبارزته ، وانقض عليه ، وضربه ضربة عنيفة اتقاها بهمن ثم تبادلا الضربات ، بحذق ودراية ، وأخيرا سدد القعقاع ضربة قاتلة إلى بهمن فأرداه قتيلا .

ويقال ان القعقاع قتل فى يوم أغواث ثلاثين رجـــلا من عظماء الفرس فى ثلاثين حملة!! .

وكان آخر قتلى القعقاع فى ذاك اليوم — أغواث — بزرجمهر — من رجال الفرس البارزين !!..

لقد كشف القعقاع عن أصالة عسكرية ، عميقة الجذور ، وروح مثالية بعيدة المدى ...

ثم انضم القعقاع الى اصحابه الذين وفدوا على إبلهم ، وقد نشروا على وجوهها ثيابا تنسكرية غريبة .

فأزعج منظرها خيول الفرس التى انتابها ذعر مفاجىء ، فنفرت الخيول الفارسية كما نفرت الخيول العربية بالأمس القريب .

واختل النظام فى صفوف الفرس ، فازداد تعرضهم للطعن والقتل .

وبارز فى ذلك اليوم الأعور بن قطبة ــ شهريار سجستان . فقتل كل منهما غريمه ! .

وفى ذلك الحادث يقول أخو الأعور :

لم أر يوما كان أحلى وأمر ٭ من يوم أغواث إذ إفتر الثغر

حقيقة الفارس الملثم :

بهر نظر سعد فى اليومين الأولين من معركة القادسية فارس ملثم مقدام . كان يظهر فجأة أثناء اشتداد المعركة ، يمرق مرور السهم ـ ضاربا ، مقاتلا ، طاعنا فى جيش الفرس بمهارة تفوق تصور البشر ! لا تهدأ له حركة ـ يميل يمنه ويسره . يفتك بالأعداء من كل جانب . لمهارته تكاد تراه فى كل الجوانب !

يمتطى فرسا بلقاء تسابق الريح . فى سرعتها ووثباتها !

كان الجنود من حوله فى دهشة بالغة من أمره !

فهو ملثم لا يظهر منه إلا عيناه النافذتان .

وعندما أقبل الليل . وسكنت رحى الحرب ، إختفى الفارس فجأة كما ظهر فى اليوم الثانى ، يخوض وسط الهيجاء كالريح العاصف ، يطيح برمحه وسلاحه رقاب الفرس فى الميمنة والميسره ، موقفا القلب . لايبرز منهم فارس الا اختطفه مطيحا برقاب اعداد لا يدركها حصر من الفرس .

وصفه المسلمون بأنه مدد من السماء ، قد أرسله الله تعالى ، لتشتد به قوة المسلمين ، ويزداد حماسهم ، ويتاكدوا من النصر المبين المرتقب . .

احتار قائد المسلمين سعد فى أمره ، وود لو عرفه . .

وبينما هو فى حيرته سمعت اليه زوجته سلمى ، واعتذرت اليه ، لصيحاتها فى بدء المعركة . اذ كانت ثقتها قد تزعزعت بزوجها ، ويئست من النصر ، وتذكرت القائد المنتصر زوجها الراحل ــ المثنى ــ فى موقف الحرب الدائرة .

وفرار الخيول العربية خوفا من الفيلة الفارسية . فصاحت من اعماق قلبها ،
« وامثناه !! ولا مثنى للخيل اليوم » . .

آلم ذلك القائد سعد .. وآذاه فى شعوره ، لاسيما وهو الرجل الشجاع الذى أثبتت الحروب علو مقدرته .. فكان أن زجرها بغير عنف ..

ولقد تقبل سعد اعتذار سلمى ، وصفح عنها ، مؤثرا البر بها ، والعطف عليها . ثم لم يلبث أن حدثها حديث نفسه عن ذلك الفارس الملثم الذى لم يعرف عن أمره شيئا ، سوى أنه كبير الشبه بأبى محجن الثقفى الذى غضب عليه لمجونه ، واحتسائه الخمر . فقيده وحبسه ليقينه أن نصر الله لايأتى مع معصية ! كما أكد لها أن الفرس التى كان يركبها اقرب ما تكون شبها إلى فرسه البلقاء . .

آثرت سلمى أن تذكر الحقيقة لسعد قائلة :

لقد عرفت من سماحتك ونبلك ماشجعنى على أن اذكر لك ما كان !

إن أبا محجن الثقفى كان يرجو أن تأذن له فى الحرب ، ولكنه رهب جانبك ، وخشى رفضك !

فلما رآنى ، وقد أهاج نفسه هذا الأمر ، رغب فى أن أطلق سراحه وأدعه يخرج للحرب دون علم منك ، فاذا انتهى من اداء واجبه عاد لقيد نفسه فى الحبس الخاص به ، إرضاء لضميره ، وإرضاء لخالقه تعالى . وأنشد بصوت يقطر حزنا . ويفيض أسى . ويتسم بالصدق :

كفى حزنا أن تردى الخيل بالقنا
وأترك مشدودا على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد . واغلقت
مصاريع دونى قد تصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وأخوة

فقد تركونى واحدا لا أخا ليا

ولله عهد لا أخيس بعهده

لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

فكرت مليا فى إطلاقه ..

ونزلت اليه ، وقلت له : « إنى قد استخرت الله ، ورضيت بعهدك » . فأجبته إلى مطلبه إبتغاء رضاء الله عز وجل .

ولقد طلب منى أن أعطيه فرسك فلم أقبل ، ولكنه اتجه اليها ، وحل وثاقها وانطلق حتى كان مارأيت .

ولما انتهى من قتاله ، صدق فيما وعد ، إذ أقبل ، ودخل من حيث خرج . وأعاد رجليه فى قيديه .

ثم أنشد :

وليله قادس لم يشعروا بى

ولم أشعر بمخرجى الزحوفا

فان أحبس فذلكم بلائى

وإن أترك أذيقهم الحتوفا

ولقد علمت أن حبسه لأمر يتخيله ، دون أن يفعله .

وإنه لكما ترى شجاعة . واقداما ، فلو عفوت عنه كان ذلك خيرا له وللمسلمين » ...

استدعى سعد أبا محجن . وسأله عن أمره وحاله . واعتذر أبو محجن عما يقول فى شأن الخمر ، وأقسم أنه لا يحتسيها أبدا .

ولئن تمادى فى وصفها . فانما يصفها بخيال الشعراء .

فلم يكن من سعد ، وقد رأى منه صدق فعاله ، وقوة عزيمته إلا أن قال له :

« لن أعاقبك على شيء حتى تفعله . وقد عفوت عنك » .

واسترد أبو محجن حريته . فازداد حماسه ، وثقته . وسرى فيه إحساس كبير بالسعادة لانطلاقه حرا . وحمد الله تعالى الذى حقق أمنيته للجهاد فى سبيله بنفس متوثبة إلى التفوق فى قتاله الرهيب المثير .

(ثالثا) يوم عماس :

فى اليوم الثالث المعروف بيوم « عماس » — عادت الفيلة الفارسية إلى ساحة المعركة .

وإزاء معرفة سعد مقاتل الفيلة من الفرس الذين أسلموا ، فقد طلب من القعقاع بن عمرو ، وأخيه عاصم . القضاء على الفيل الأبيض — أضخم الفيلة . وأعلاها ، بتصويب رمحيهما إلى عينيه ، وقطع مشفره . وبتنفيذ أمر سعد ، هام الفيل الأبيض بين الصفوف . يشيع بينها الفوضى والاضطراب . حتى نفق مثخنا بالجراح .

وكلف سعد جماعة من بنى أسد بالخلاص من الفيل الأجرب . فأحدثوا به جراحا بالغة اضطرته للوثوب إلى النهر هربا وخلاصا ومن خلفه الفيلة الأخرى إذ كانت الفيلة كلها تتبع الفيلين الأبيض والأجرب .

خلا الميدان من الفيلة ، فاستراح المسلمون من شرورها .

واصل المسلمون زحفهم . وكرت الخيول العربية ، وأقبلت وعاود الفرسان هجومهم .

نشب القتال عنيفا بين المسلمين والفرس ، فتدفقت الدماء أنهارا ، والسيوف لا تكل ، ولا تهدأ ... فتكثر من موجات الدماء المتلاحقة .

(رابعا) ليلة الهرير :

استمر القتال ليلا . وتعرف تلك الليلة بـ « الهرير » ، وفيها زحف القعقاع على الفرس .

ولما كانت هناك مخاضة أسفل معسكر المسلمين خالية فقد خشى سعد تسرب العدو منها إلى ظهر جيشه ، فندب لها طليحة الأسدى ، وعمرو بن معديكرب .

فى الليل انطلق طليحة وعمرو ، إلى المخاضة .. فلم يعثروا على أحد .. استمر طليحة فى مسيرته وحده ، حتى وقف على ردم النهر خلف معسكر الأعداء ، ثم كبر ثلاث تكبيرات ..

استبد الفزع بالفرس .. وحسبوا أن المسلمين يفاجئونهم بالقتل ..

فى ذات الوقت تملكت الدهشة المسلمين ، ودار بخلدهم أن الفرس يفتكون برجالهم ، وهم لذلك يستغيثون بهم.. أما عمرو فقد أغار على رجال أسفل المخاضة.. وتوالت الأحداث سريعة عاصفة ..

زحف الفرس ، وتقدموا فى اتجاه المسلمين..

رأى القعقاع أن الموقف يتطلب سرعة الزحف ، فأمر القوات بالاشتباك بالفرس دون إذن من سعد ..

قدر سعد الظروف المحيطة بالقعقاع فقال :

اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له ، وان لم يستأذنى . .

انتظم المسلمون فى صفوف ، مشتعلة الحماس :

صف استوعب أصحاب الرماح والسيوف ..

وصف اتخذ فيه الرماة مواقعهم ..

وصف اجتمع فيه الفرسان !!

وسرى إلى المسلمين رضاء سعد وإقراره أمر القعقاع ، وأنه سوف يكبر ثلاثاً

واستمع المسلمون إلى صوت مؤمن قوى :

لاتجزعوا من القتل ، فانه أمانى الكرام ، ومنايا الشهداء !! ..

والتفت حامل لواء إحدى القبائل إلى أصحابه قائلا :

« أنه لا يسبق الليلة أحـــد إلا كان ثوابه على قدر سبقه ، تنافسوا فى الشهادة !!

ثارت حمية القوم ، وانتظروا تكبيرات سعد التى توالت تباعاً .. إثر التكبيرة الثالثة انطلق الأقوام ، والرؤساء ، يشدون أزر القعقاع ، ويذودون عن شرفهم .. ويتسابقون إلى قتال الفرس ، وقد تجلت قوة عزيمتهم ، ويقينهم .. واستمر هجوم المسلمين متسماً بالعنف الشديد ، متميزاً بالتفوق فى كافة مراحله ..

لقد روع الفرس الذين خاضوا المعركة حماس المسلمين .. ، المرتفع إلى الذروة ، وقتالهم العنيف المتتابع !!

أما حصيلة قتال المسلمين فقد أسفرت عن رءوس للأعداء لاحصر لها ، تخلت عن قلوبهم الجاحدة الكافرة .. ، ولقد انسابت دماء الفرس غزيرة تخط لهم عبرة نهايتهم .. بعد طول طغيانهم ، وعنادهم !! ..

ولقد ساد صوت الحديد ، وصليل السيوف ، سائر الليل المدلهم يعلن عن تصميم المسلمين على القتال حتى يدركوا النصر المبين .. وصمد الجند المسلمون صموداً رائعاً ، منقادين إلى أوامر القائد سعد مستجيبين لصوته القوى المدوى فى ساحة المعركة يناشدهم الاستمرار فى التقدم البطولى .. !!

فلم يتوقف المسلمون بل تابعوا قتالهم وتقدمهم حتى انهزم جناحا جيش الفرس ..

وبقى القلب وحده يقاتل المسلمين ..

ولكنه لم يستطع الصمود أمام هجوم قوات سعد ..

ولقد شاركت العواصف المزمجرة الهوجاء جنود الله فى نضالهم وجهادهم ، فأثارت الغبار بسرعتها المذهلة . واقتلعت بقوة اندفاعها خيمة القائد رستم المشيدة فوق سريره الذهبى . . فأصاب القائد رستم ذعر رهيب ، فأسرع إلى نهر العتيق يرتمى فى أحضانه ليسبح بعيداً عن بطش المسلمين ، وينجو من مصرعه الذى أنذرته به أحلامه ، فطالما أرق الليالى الطوال لاحساسه الغامض بأن نهايته ستكون على أيدى العرب !! ..

ولكن هلال بن علقمة، تنبه إليه فخاض البحر فى إثره . ثم ادركه قبيل فراره من مصيره المحتوم، وعاد به جاذبا إياه من رجله إلى الخندق حيث ضربه بسيفه وخلفه صريعاً !! ...

ثم ارتقى هــلال سرير رستم، وصاح بصوت مــدو، يحمل نبرات الثقة، والنصر :

« قتل قائد الفرس !! قتل رستم، ورب الكعبة !! ... »

وقع خبر مصرع قائد جيش الفرس وقوع الصاعقة على رجاله المعتمدين على وعده إياهم بالنصر، ووعيده المسلمين، وقسمه بالشمس أن يقتل أصحاب سعد، ويبدد شملهم، وإعلانه أن لازوال لملك الفرس !!..

وتوالت أمواج الفرس، وقد استبد بهم سعار الجبن والفزع، وقد انهارت معنوياتهم، فتساقطوا أمام سيوف المسلمين، التى تولت حصدهم تباعا !! ...

وارتفع صوت المسلمين بالتكبير، وحمد الله تعالى . وتزايد حماسهم، فقتلوا ألوفا عـديدة من الفرس، وكان القتل من نصيب ثلاثين الفا من أهـل الفرس، كانوا قـد قرنوا أنفسهم بعضهم الى بعض بالسلاسل، وتحالفوا بالنور، وبيوت النيران، لايبرحون حتى يقتحموا أو يقتلوا !!..

وبعد ان قتل ضرار بن الخطاب فى ذلك اليوم حامل لواء الفرس انتزع من يده راية الفرس الكبرى المصنوعة من جلود النمور المعروفة باسم « الدرفس كابيان» راية كسرى، وهى الراية العظمى التى اعتز بها الفرس اعتزازا لا حـد له . وقدرت مساحتها بستة وتسعين ذراعاً مربعاً ..

ولقد رصعت بالياقوت واللؤلؤ، وأنواع شتى من الجواهر النادرة !!..

ونصر الله المجاهـدين فى سبيله . لاعلاء كلمة الحق، ونصرة دينه القويم . وتحققت نبوءة ــ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأقبـل المسلمون يهنئون قائدهم سعدا .

وانتشر خبر انتصار سعد فى الآفاق ، وخلد على مر الزمان ، وأشرق فى سجلات التاريخ بنور سرمدى .

ولا غرو فالقادسية لها أهميتها من الناحية العسكرية بالإضافة إلى قيمتها الحيوية إذ أنها تقع فى مكان حصين وإنها لغنية بمياهها ، ومزارعها وثمارها وخيراتها .

كيف تلقى عمر نبأ الانتصار ؟؟:

أوفد سعد رسولا إلى عمر بن الخطاب الذى كان مهتما بمصير الجيش ، وأخبار المسلمين ، وأنباء موقعة القادسية التى تعتبر حدا فاصلا بين ما يرجف به الكفار المنافقون ، وبين النصر المبين !!

عندما وصل رسول سعد إلى مشارف المدينة ، أبصره عمر بن الخطاب الذى كان يتلهف على اخبار المعركة .

استوقف عمر الفارس القادم الى المدينة قائلا . « من أين أيها الفارس ؟ »

فقال له الفارس : « من عند جيش المسلمين إلى عمر أمير المؤمنين » وكان الفارس يجهل شخصية الخليفة عمر .

ترك الفارس عمر ، مواصلا مسيرته ، لأداء مهمته ، لكن عمر تابع السير وراءه مستفسرا منه عن الأخبار .

الفارس يجتهد فى قيادة ناقته ، ويستحثها على السير ليدرك أمير المؤمنين . .

وعمر يجرى خلفه ، ليطمئن على المسلمين . فيجيبه الرسول قائلا :

لقد هزم الله المشركين !!..

وظل حالهما على هذا المنوال حتى دخل الفارس المدينة راكبا ناقته . وخليفة المسلمين يجرى فى إثره !!..

وعندما لمح المسلمون عمر بن الخطاب سلموا عليه باحترام وتوقير ، سلاما مقرونا بامارة المؤمنين والخلافة .

تأكد الفارس ان الذى لاحقة جريا هو الخليفة ، فأصيب بالذعر والخوف .
وظل يرتجف ويقول للخليفة : « هلا أخبرتنى يرحمك الله أنك أمير المؤمنين حتى لايقع منى ماوقع !! .. »

وهنا تجلى حلم الخليفة وتواضعه اذ التفت الى رسول سعد قائلا :
لابأس عليك ياأخى لاتخش شيئا فانما نحن أخوة ، وانما كان همى ماجئت به انت ، وماذا وراءك ؟! .. »

تبدد خوف الفارس ، واطمأنت نفسه ، فتقدم الى عمر ، وقال له « أنا سعد ابن عميلة الفزارى قد جئت اليك بكتاب من سعد بن أبى وقاص أمير الجيش وقائده . وها هو ذا كتابه اليك » .

تناول عمر الكتاب من سعد وكان قد جاء فيه :
« .. أما بعد فان الله تعالى نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل ، وزلزال شديد وقد قابلوا المسلمين بعدة وعدد لم ير الراءون مثلها ، ولكن الله لم ينفعهم بذلك بل سلبهم ما بأيديهم ، ومنحه المسلمين يضربونهم بأسلحتهم ،، ولقد أصيب من المسلمين عدد كبير من كبار الرجال منهم سعد بن عبيد الغازى كما قتل عدد آخر كبير من الجنود . لا يعلمهم إلا الله كانوا يغردون بالقرآن اذاجن عليهم الليل ، دوى النحل ، وهم آساد الناس لايشبهم الأسود . ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا بفضل الشهاده اذ لم تكتب لهم بعد » .

قال الله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه . ومنهم من ينتظر . وما بدلوا تبديلا . » .
وتوجه عمر إلى المسجد . واجتمع المسلمون . وأخبرهم الخليفة ببشائر الفتح والانتصار .

وسطع البرهان العظيم ، والدليل القوى الملموس . أمام الكفار والمشركين

أن كلمه الله هى العليا ، وان الله تعالى هو الحق المبين ، وأنه قد صدق وعـــده . وحقق مابشر به رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

ولم يكد يتم نصر المسلمين حتى ذاع خبره فى الآفاق . وانتشر بأسرع من البرق فى جميع البقاع . حتى لقد قيل إن الجن قد نقلت انباء هذه الواقعة والانتصار فيها إلى المشرقين والمغربين !!..

فتح عاصمة كسرى :

استمر سعد فى القادسية شهرين بعد انتصاره . ثم كتب عمر الى سعد يأمره بالتوجه إلى المدائن ، وترك النساء والأطفال بالعتيق ، وتعيين الحراس اللازمين لحمايتهم ، وأن يجعل لأولئك الجنود حقهم فى كل مغنم .

تحرك جيش المسلمين بقيادة سعد فى اتجاه المدائن . ومن أمامه المقدمات التى قضت على بعض المقاومات الفارسية فى طريقها ... وتوالى نصر المسلمين فى « برس » وفى « بابل » وفى « بهرسير » .

المسلمون يقتحمون النهر بخيولهم :

واصل جيش المسلمين مسيرته حتى الضفة المقابلة للمدائن ... وكان النهر حائلا بين المسلمين ، والفرس الذين قطعوا الجسر ، وأزاحوا المراكب الى الضفة الأخرى لتنعدم وسائل المواصلات أمام المسلمين ، فيتعذر على فرسانهم تعقبهم ، والاشتباك بهم ...

فكر سعد بسرعة متدبرا الأمر ، عاملا للوقت حسابه . وأصدر سعد قراره الحاسم باقتحام الماء بالخيل !! هلل المسلمون لقراره ، وخاضوا البحر بخيلهم .. آثر سعد أن يعين مقدمة يتبعونها ، ويسيرون وراءها فانتدب عاصم بن عمر التميمى ، ومعه ستمائة من أهل النجدة ... رأى سعد نجاح الطليعة ، فكبر إيذانا

باقتحام الفرسان النهر بخيولهم .. وسرعان ما اقتحم أولئك الفرسان النهر، وخاضوا أمواجه، وقد أسلست خيولهم قيادها لهم، وقد ذلل لهم البحر كما ذلل لهم البر .. واستمروا فى اجتيازهم النهر، بثبات وتؤدة، يحف بهم الجلال. وتحيطهم الرهبة، ويتولاهم الله تعالى بالحفظ والوقاية، فيستبشر الفرسان بتوفيق الله لهم، وهدايته إياهم فتسعدهم المغامرة التى يقومون بها، ويتلهفون على نتائجها ومعقباتها. وقد كان الحظ السعيد فى ركابهم فلم يغرق منهم أحد. إذ أن فارساً سقط فى الماء. وسرعان ما التقطه القعقاع. وجذبه. وخرج الفارس معه سالما !!..

وعندما بلغ الفرسان شاطىء دجلة سالمين، وقفت الخيول تنفض أعرافها، ويهز صهيلها الأرجاء، مختلطا بأصوات المسلمين وقد فاض حماسهم، وعلا تكبيرهم !! ...

وصول المسلمين الى إيوان كسرى :

فاجأ جيش المسلمين أهل فارس بأمر خطير لم يكن فى حسبانهم ! لقد بوغتوا برؤية الفرسان المسلمين قد عبروا النهر من غير سفن أو جسر بل خاضوه خوضا !

وها هى أرض فارس تميد تحت أرجل الفرس، والمسلمون يرجون الأرض رجا. ويزلزلونها زلزالا !

لقد حسب الفرس أن نهر دجله سوف يحميهم. ويقف عقبة فى طريق المسلمين فاذا النهر ينقلب عليهم. ويخالف ظنهم. فيتلقف الفرسان المسلمين بين احضانه، ويوسع لهم فى أمواجه، ويحتملهم برضاً كبير، حتى عبروه بسلام آمنين. هم وخيولهم العربية الأصيلة. بفضل من الله تعالى ورعايته ..

لقد استبد بالفرس. جنون الهول. وذهول الفناء ..

فكانوا يفرون من الموت فرارا. وجبنا !!..

لقد احدق بهم الذل والهوان ..

ولم يكن يزدجرد بأقل منهم خوفا وهلعا . وكان من ذى قبل قد هدد بقتل وفد المسلمين ورسلهم . واعتقد أنه يذرى بهم ويسخر منهم وهو يحملهم تراب فارس بل تمادى فى غرور الملوك وتطاولهم عندما وجه الحديث إلى وفد سعد قائلا :

« ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية!!

أسرع يزدجرد إلى حلوان ليتوارى عن أعين المسلمين ، وقد لحقه العار . وأدركه الذل إلى آخر رمق فى حياته !!

بينما المسلمون يطاردونه وقد نصرهم الله تعالى نصرا مؤزرا مبينا .. !

فر كسرى فرار الجبان الرعديد . المشرد الطريد !

وقد زال ملكه . وتقوضت اركانه . وفقد ميراث جدوده الذى جمعوه قسرا وبغيا طوال آلاف من السنين .

« أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال » .

وصل القائد سعد إلى إيوان كسرى .. وفى إيمان عميق . وتقوى تعمر قلبه الكبير قرأ خاشعا قول الله تعالى :

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » صدق الله العظيم

دخل المسلمون المنتصرون القاعات الفسيحة . المرفوعة على أعمدة من الرخام الزاخرة بالنقوش الدقيقة التى تزيدها بهاء وروعة ..

رأى المسلمون عزا عامرا ، ومتاعا غاليا ، ومالا وفيرا لم يقدره اصحابه حق قدره . بل طغوا وتكبروا!!!

شاهد المسلمون عرش كسرى من الذهب ، حيث كان يجلس تحت قبة مرصعة بالجواهر وحوله أعوانه الذين ظلموا واستبدوا . وعاثوا فى الأرض فسادا !!

خشع المسلمون . وتعالى تكبيرهم ..

سبحان من أذل الطغاة . وأخضع المتكبرين ..

سبحان المعز المذل ..

سبحان من يغير ولا يتغير ..

سبحان من صدق وعده ، ونصر جنده ...

ان النصر لحظاته لاتنسى لاسيما اذا كان نصراً خالداً . كذلكم النصر الذى أحرزه سعد بعون الله تعالى ...

انه النصر الذى ارتقبه سعد واثقا مطمئنا ...

انه النصر الذى كان عقيدته ثابتة لدى سعد قبل تحققه ...

انه لعمرى النصر المبين الذى سمع عنه سعد ، من الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ، أعظم قائد انسان فى تاريخ الوجود البشرى ..

انه الرسول القائد الذى تصدى للمشركين منذ أن كان فرداً واحداً ..

انه الرسول القائد الذى استعد لملاقاة أعداء المسلمين متحالفين ، جمعت بينهم عداوة بغيضة للدعوة الاسلامية ، إذ تحالف أعوان البغى والظلم والعدوان وهم :

يهود خيبر ، وقريش ، والقبائل العربية القاطنة بضواحى مكة

ان سعدا يؤكد تماما استقرار رأى الرسول القائد على حفر خندق حول حول المدينة .. ليعوق اقتحام المعتدين ، ويجنب المدينة أذاهم ، وغدرهم ...

حفر الرسول القائد بنفسه ، وحمل التراب ...

فاقتدى به المسلمون ، وعملوا بهمة صادقة ، وتناولوا معاولهم ، وحفروا بها

وحملوا التراب والحجارة حتى تم لهم انجاز الخندق المنشود ..

وعندما أقبل المعتدون ، عاقهم الخندق عن الوصول الى المدينة ، وحاولوا عبوره ، ولكن سهام المسلمين المحكمة التنشين كانت تردهم على اعقابهم .

حاصر المعتدون المدينة ، . فانبرى لهم أبطال المسلمين للمبارزة والقتال .

ولقد خرج البطل سعد مرارا ، وبارز وطعن . وقتل عددا كبيرا من الكفار بين هتاف المسلمين المتصاعد ، واعجابهم المتزايد !!

مر شهر .. وأعداء الاسلام يمعنون فى حصارهم البغيض ، بقلوبهم الصماء القاسية ...

وتوجه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . إلى الله تعالى الذى أرسله للناس رسولا بالدعاء :

« اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

فارسل الله تعالى ريحا صرصرا عاتية ، اقتلعت خيامهم ، وبددت شملهم . واشتد المسلمون فى حربهم مع زئير الرياح حتى ولى الاعداء الأدبار خاسرين مهزومين . وهتف سعد مع الهاتفين :

« لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده فلا شىء بعده » .

تذكر سعد كل ذلك وانها لمرئيات واضحة أمام نظره الحاد ، وقلبه السليم ، وذهنه المتوقد ، وإيمانه الراسخ ...

وإنه ليقف خاشعا ، وقد ازداد حنينه إلى الرسول القائد ، وازداد يقينه برسالته ، فهو الذى بشر بهذا النصر ، بل أبعد منه مدى !

لقد كانت تلك البشرى العظيمة أثناء العمل فى ذلك الخندق ، الملتف حول المدينة .

اعترضت كدية صعبة طريق المسلمين ، واستعصت عليهم أثناء حفرهم ...
فذهبوا إلى النبي . وقالوا :

« هذه كدية عرضت فى الخندق » .

فنزل الرسول معهم ، وتناول معوله ، وراح يضربها ...

فتطايرت شرارة . فهتف النبي : « الله أكبر ... »

وقال إنه رأى فى هذه الشرارة أنه أعطى مفاتيح سوريا !!

ثم ضربها ضربة ثانية ، فتطايرت شرارة ، فقال إنه رأى فيها أنه أعطى مفاتيح فارس !

ثم ضربها ضربة ثالثة ، فتحولت الكدية الى رمال غير متماسكة .. فقال النبي إنه رأى فى الشرارة الثالثة أنه أعطى مقاليد اليمن !!

أنها لمرئيات أمام سعد ..

توالت أمام عينيه ..

فقد رأى الشرارة ، واستمع إلى الرسول ، وأيقن من امتداد الدعوة الإسلامية إلى كل تلك البقاع والممالك !!

وها هم المسلمون قد اتبعوا منهج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ، وساروا فى إثر خطواته ، بقيادة صاحبه المؤمن سعد بن ابى وقاص ..

فانتصروا على كسرى . وانتهى بهم المطاف إلى مقر حكمه !! إلى ايوانه الملكى !! .

ولكن القائد سعد الفاتح العظيم لم يبهره سوى جلال الله تعالى !

فأقبل فى وقار الاتقياء ، وسمات الزهاد ..

وعندما حان موعد الصلاة ، أمر المؤذن بالأذان فى إيوان الوثنية ومعقلها ...

أم سعد المسلمين ، وأقاموا الصلاة ، وقد سمت نفوسهم إلى عالم سماوى ، وحلقوا فى أجواء روحية ...

وازدادوا بالله إيمانا ويقينا . وتوطدت عبوديتهم لخالقهم عز وجل ، وغمرت أفئدتهم أنوار التقوى ، فقويت عزيمتهم للنضال ، والجهاد فى سبيل الله تعالى .

الغنـــائم :

أصدر سعد أوامره إلى رجاله بجمع الغنائم من الدور والقصور . .

كان الرجال ينوؤن بحمل القناطير المقنطرة من الأموال ...

حسبوا القباب قد ملئت سلالا من الطعام . .

ولكنهم وجدوا ذهبا قد تكدس فى تلك السلال !!

وكان هناك ألوف من التمر والغنم ، وقناطير من الأطعمه والأشربة تملأ المخازن الواسعة . .

لقد أعدوا ذلك . ليطيلوا أمد الحصار . . .

وما تشاءون إلا أن يشاء الله . . .

تاج كسرى وجواهره :

أثناء تعقب المسلمين للفرس . لاحظوا محاولة الكثيرين منهم الافلات بنفائسهم ، والإسراع بالفرار إلى أبعد مدى ولكنهم توقفوا فور سقوط أحد بغالهم فى النهر وتعاونوا على انقاذه ، وقد أبدوا حرصاً شديدا على أحماله ..

ولكن المسلمين أحاطوا بهم . وتسلموا أحمالهم ...

وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما وجدوا فى هذه الأحمال حلى كسرى ، وملابسه الفاخره . ووشاحه ، ودرعه الموشاة بأغلى الجواهر ، وأثمنها ..

ولقد كان كسرى يختال بتلك الثياب والجواهر ، اختيال الطاووس فوق عرشه الذهبى .

وأدرك بعض جنود سعد ، أشخاصا من الفرس ، يسيرون خلف بغلين محملين بمتاع ثمين ...

ولقد تبين أن أحد البغلين يحمل تاج كسرى ، بما حوى من جواهر وحلى .. بينما يحمل الثانى ثياب كسرى ...

وأدرك القعقاع فارسيا موليا الأدبار ، وقد حرص على حمل ينوء به .. وبعد اذ قتل القعقاع الفارس ، أخذ حمله الذى امتلأ بدروع كثيرة ، من بينها درع كسرى ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ، وبعض مقتنيات كسرى من غزوات الفرس السابقة .. ، وسيوف كسرى وهرمز والنعمان وهرقل وخاقان ..

حمل القعقاع كل الغنائم التى استولى عليها ، هو وغيره من المسلمين ، إلى سعد فى القصر الأبيض ، فملأت ساحات شاسعة من أبهاء القصر !!

عرض القعقاع الغنائم كلها على القائد سعد ، ليأخذ ما يروق له منها ، بيد أن القائد الزاهد سعد أبى تعففا فى مال ، يخص المسلمين ، وإنه لأمين عليه .. واختار سيف هرقل ، ليستخدمه كأداة حرب ...

صدرت أوامر سعد بجمع الغنائم كلها ، وخصص مكانا قائماً بذاته للتحفظ عليها ...

ولقد كان الجنود المسلمون موضع تقدير سعد ، واعزازه لهم لمسلكهم الرائع وأمانتهم النادرة ...

ولكى ندرك مدى الأمانة التى التزم بها الجنود المسلمون ، لابد لنا أن نتصور مدى ماكانوا عليه من معيشة خشنة ، وحرمان من ضروريات الحياة ، ومعاناة للجوع .. فطالما ربطوا الحجارة على بطونهم الخاوية .

لقد سخر كسرى فى بداية الحرب ، من رسل سعد اليه ، وعيرهم بفقرهم وجوعهم ، وتعالى عليهم ، بغره الوارف ، وجبروته للعظيم !!..

ولكن المسلمين حاربوا الفرس عن عقيدة راسخة .

حاربوا الظلم والظالمين .

بعد جهاد مرير ، وقتال شاق ، التقى المسلمون بالثراء الكبير الذى تمتع به به كسرى وأعوانه ، وورثوا الأملاك المترامية الأطراف ، وغنموا غنائم لاتخطر على بال ..

ولكن المسلمين ظلوا على امانتهم وتعففهم .

كان الجنود يتبارون فى نقل التحف الثمينة ، والجوهرات القيمه ، إلى رؤسائهم الذين يسلمونها إلى القائد سعد بحرص ، وأمانة .

مهما رقت النفس حسا . وتألقت الروح صفاء . فانه من الصعب تصوير مدى أمانة جنود سعد ، وعمق إيمانهم ، والتعبير الصحيح عن تجردهم من الأطماع وعزوفهم عن التكالب على متاع الدنيا . فهم المؤمنون الذين هانت الدنيا عليهم . وتاقت نفوسهم إلى الاستشهاد شوقا . .

توزيع الغنائم :

قال الله تعالى:«وأعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين »

بادر القائد المؤمن سعد إلى فرز خمس هذه الغنائم ، وأرسلها إلى أمير المؤمنين ، إذ أنه المسئول الأول عن أموال المسلمون عامة ، وهو الذى يعطى كل ذى حق حقه .

حرص سعد أن يكون هذا الخمس من عجائب هذه الغنائم . التى تبهر العرب بارتفاع قيمتها . ودقة صنعها ، وندرة وجودها .

فأرسل سعد بساطا فريدا من نوعه إلى أمير المؤمنين بعد أن تنازل هو وجنوده باختيارهم عن نصيبهم فيه . . إذ رأى سعد أن يظل هذا البساط وحدة كاملة . . ليحتفظ برونقه وبهائه . قدرت مساحته بثلاثة آلاف وستمائة ذراع . .

كان هذا البساط يحاكى الروض فى الربيع منظرا .

فأرضه من حرير فوقها نبات منسوج بالذهب له نوار من الفضة والذهب والماء يجرى على هيئة فصوص دقيقة رائعة الجمال . فأثار الدهشة . واجتذب الأنظار ...

كان كسرى وأعوانه يفتقدون هذا البساط فى الشتاء . عندما تقفر الرياض من الأزهار . فيبسطونه . ويمدون من فوقه موائد الطعام الشراب . لينتقلوا الى الربيع بأجوائه العاطرة . ونباتاته المزدهرة !

توالى وصول الغنائم من حق الخمس الذى هو لله ولرسوله . ولذوى القربى . واليتامى . والمساكين — الى المدينة . لدى أمير المؤمنين .

بلغت الغنائم أعدادا هائله . وشكلت أكواما كبيرة . لذلك أقسم عمر أن لايظلها سقف بيت دون السماء .

فأودعت بين الصفتين فى المسجد ، وأقيم عليها عبدالرحمن بن عوف حارسا ومعه عبد الله بن الأرقم .

توافد المسلمون تباعا من كل حدب وصوب . ليروا سيف كسرى ، وتاجه وسيوف القياصرة ، وكبار القادة ، وليتأملوا التحف النادرة المطعمة بالجواهر ، التى غنمها جنود سعد المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله .

وفى صباح اليوم التالى وزع أمير المؤمنين الغنائم على ذويها الذين اجتمعوا فى المسجد وحوله .

ولقد وزع القائد سعد الغنائم بالعدل على جميع أفراد جيشه ، الذين تاقت نفوسهم لمواصلة الجهاد فى سبيل الله تعالى الذى أمدهم بالنصر المبين ، وأغناهم بغنائم وفيرة ثمينة.

ولاغرو :

فهم رهبان الليل ، فرسان النهار ..

الفرس يستعدون :

عز على الفرس أن يخرجوا من بلادهم على تلك الصورة المهينة... وأن يسيطر المسلمون على بلادهم ، ويستحوذوا على خيراتها ، ويتمتعوا بنعيمها ...

أخذ الفرس على عاتقهم تحصين — جلواء — وآلوا على أنفسم الدفاع عنها .. ، متخذين إياها مقراً لتجمعهم ، وقاعدة لهم ... وأحاطوها بخندق ليحول بينهم وبين المسلمين المهاجمين ..

وأمدهم يزدجرد : بالمؤن ، والذخائر ، والجنود . . ، ليلتقوا بقوات سعد فى معركة فاصلة ، تؤكد بطشهم وجبروتهم ، ليستردوا مافقدوا ويدافعوا عما تبقى ...

تعقب المسلمين للفرس :

عندما أوضح سعد الموقف لأمير المؤمنين ، أمره عمر بتعبئة جيش قوامه إثنا عشر ألفاً — بقيادة ابن أخيه هاشم بن عقبة بن أبى وقاص ، وأن يتولى القعقاع قيادة مقدمة الجيش ... سار هاشم بجيشه من المدائن قاصداً — جلواء ...

شحنت نفوس المقاتلين حماساً وثقة وأملا !!

وانطلقوا مسرعين إلى — جلواء — حيث حاصروها حصاراً محكماً . .

بعد إذ طال أمد الحصار إلى ثمانين يوماً ، أفاق الفرس على موقفهم السيء — الذى يزداد تدهوراً على توالى الأيام .. وهالهم ما حاق بهم من بلاء وويلات خلال فترة الحصار الرهيب . .

لذلك وطد الفرس العزم على مواجهة المسلمين دفعة واحدة ، مصممين على دفعهم عن حصارهم .

ما كاد الفرس ينفذون خطتهم ، حتى بادرهم المسلمون بصدماتهم دون هوادة ،

واشتدوا فى قتالهم وتساقطفرسان فارس فى الخندق أكداساً أثر عواصف هوجاء أظلمت الجو — فحمل المسلمون عليهم بشدة ، فلم يسلم الهاربون من القتل ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . . وتدفقت دماء الفرس أنهاراً . فاقت فى غزارتها ليلة الهرير . . إذ بلغ قتلى الفرس فى هذه الموقعة أكثر من عشرين ألفا !! ..

والى القعقاع مسيرته إلى حلوان حيث يتحصن كسرى — يزدجرد — ولكن كسرى آثر متابعة فراره إلى الرى ، حاملا القليل من متاعه ، مخلفاً معظم نفائسه ، وكنوزه ، وأمواله . .

وتولى هاشم توزيع تلك الغنائم على الجنود بالعدل ، وفق الشريعة الاسلامية ..

إسلام الفرس :

استوعبت فارس كيان المسلمين . . ، بعد إذ سيطر جنود سعد عليها .. وتخلى الفرس عن بلدانهم بعد أن رفضوا مطالب المسلمين : الإسلام أو الجزية .. فكانت الحرب الأخيرة التى خاضها العرب ، لتخليص البلاد من الوثنية والعبودية ، ونقل الأفراد إلى حياة أفضل يشرق فيها نور الإسلام ..

فتوالت وفود الفرس على القائد سعد..

معلنين الولاء . .،

وإعتناق الإسلام . . ،

عن رغبة واعتزاز .. ،

للقدوة الصالحة التى تجلت فى مسلك الجنود المسلمين ، بقيادة أمير الجيوش الإسلامية سعد بن أبى وقاص ، الذى تشع شخصيته ورعاً وزهداً . . ، فهو المتوج بتاج المهابة والكرامة ، مع رداء العصمة ، وحلة الاستقامة ..

لقد دفع الفرس الثمن غالياً ، من دماء غزيرة أريقت ، وأرواح لا حصر لها أزهقت ..

وأفاقوا من طغيانهم وكفرهم .. ليروا وضوح طريق الهداية الذى دل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا إليه ..

وإزاء هدوء الموقف فى فارس ، وإقبال الفرس على الدخول فى دين الله تعالى ، دين الإسلام ، أفواجاً ، رأى عمر بن الخطاب ، وقف عجلة الحرب ، حفاظاً على أرواح المسلمين ، قائلا :

« لوددت أن بين السواد ، وبين الجبل سداً ، لا يخلصون إلينا ، ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد أنى أوثر سلامة المسلمين » .

أطاع سعد أمر عمر .. ، واهتم بشئون جنوده ، منظماً لهم أحوالهم ، مرتقياً بشئونهم .. ، مستهدفاً الصالح العام المسلمين ..

تخطيط الكوفة :

أقام سعد مع جنوده فى المدائن بعد الفتح .

ولقد أثرت رطوبة الجو ، وكثرة الهوام فى صحة الجنود ، فاعتلت صحتهم . استدعى سعد الخبراء لتحديد مكان المدينة الجديدة . . ، تتوافر فيه الشروط التاليـــة :

أولا : يخلو من الرطوبة ويقرب من جو البادية .

ثانياً : لا يحول جسر أو نهر دون وصول الامدادات إليه ..

ثالثاً : يسهل إنسحاب القوات منه إلى البادية دون عائق إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

رابعاً : صلاحية طبيعة الأرض .

اختار سعد رجلين من ذوي الخبرة بأحوال الجو وطبيعة الأرض : سلمان

الفارسى ، وحذيفة اليمانى ، اللذين تكفلا بأمر المدينة ..

قام كل منهما بالاستكشاف والبحث ، ثم التقيا فى منطقة غربى الفرات ، وهى حالياً — موضع الكوفة ..

استقر رأى الخبيرين أن تلك المنطقة تتوافر فيها كافة الشروط المطلوبة ..

وبعد تحديد المدينة ، عهد سعد إلى الهياج بن وائل الأسدى ، بتخطيط المدينة وهندستها ..

إقامة أول مسجد فى الكوفة :

إبتدأ سعد باقامة أول مسجد فى الكوفة ، مراعياً أن يتوسط المدينة التى تتسم بالرحابة والسعة ..

أطلق سعد سهماً يصل إلى أبعد مدى فى كل جهة من جهات المسجد ، ثم طلب سعد من المسلمين أن يبنوا وراء تلك السهام .. أولى سعد عنايته الفائقة باقامة المسجد ..

لقد أمر سعد أحد رجاله ، فعلا بسهم قبل مهب القبلة ، ثم أعلم موقعه ، وتتابعت السهام قبل الجهات الأخرى ، وتحددت المواقع الباقية ...

لقد تم تشييد أول مسجد فى الكوفة.. متميزا بالتخطيط الصحيح، والاتساع الفسيح ، والصلاحية التامة للعبادة ، وإقامة الشعائر الدينية ...

اقامة دار للندوة – « البرلمان »

أمر القائد سعد باقامة مبنى أمام المسجد على مساحة قدرها عشرة آلاف ذراع .

أعد ذلك المبنى لاجتماع المسلمين فيه للمشاورة فى كافة أمورهم المهمة ، تمشياً مع الشريعة الإسلامية .. ولقد عرف ذلك المبنى بدار الندوة .

تعمير الكوفة :

أرسل سعد إلى عمر مستأذناً إياه فى البناء باللبن ، إذ أن النيران لم تبق على دور المسلمين المشيدة بأعواد من القصب..

وجاء رد عمر : « إفعلوا ولا يزيدن احدكم على ثلاث غرف، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة » .

أقيمت الدور حول المسجد ، وزودت المدينة بسوق تتوفر فيه السلع اللازمة .

ونظمت دروبها ، ونسقت تنسيقاً مناسباً ..

شيد لسعد القائد المنتصر — منزل سمى — القصر — حيث اتخذه سعد مقراً للحكم .. ، وبيتا لمال المسلمين ، يودعه الجبايات والخراج ، وتوزع منه الأنصبة على المسلمين وفق الأصول .

استرد المسلمون صحتهم ، ونعموا بالعافية ، لملاءمة جو المدينة الجديدة لهم، واستقرارهم فى مبان صحية .. نشط الجنود ، واستعدوا للمعارك المقبلة ..

ودبت الحركة فى المدينة الجديدة ، التى شيدها سعد على أسس وطيدة من العدل والتقوى ..

ادارة الكوفة :

تزايدت المسئوليات الضخمة ، والأعباء الثقيلة الملقاة على عاتق سعد فى الحرب ، وفى السلم ..

لعمرى أن سعداً قد توافرت لديه أعلى صفات القائد الممتاز ، وأسمى مزايا الوالى الرشيد ..

فهو الذى ألم بأصول القيادة ، فأحسن توجيه جنوده فى الحرب ، وقادهم بكفاءته ودرايته بالخطط الحربية الصحيحة إلى قمة النصر الخالد ..

لذلك تمتعت الكوفه بالعهد الذهبي خلال حكمه لها حكما فريدا فى المثالية !

ويتجلى ذلك عندما سأل أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب ، عمرو بن معد يكرب عن سعد إذ رد قائلا :

« متواضع فى خبائه ، عربى فى نمرته(١) ، أسد فى تامورة(٢) يعدل فى القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد فى السرية ، يعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة(٣) » .

تفوق سعد فى إدارة رجاله فى السلم ، متوليا أمورهم بالعطف عليهم ، والعناية بشئونهم ، متوخيا العدالة والأمانة ..

تفانى سعد فى القيام بالأعباء المنوطة به على خير الوجوه ، وأكلها ، مراعيا الله تعالى فى كافة تصرفاته واضعا نصب عينيه قول الله عز وجل :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

آثر سعد أن يقيم لقصر الحكم ، الذى يتولى فيه شئون المسلمين بابا ، يدخل منه أصحاب المصالح ، وطالبو الحاجات إليه ..

أرجف المرجفون ، وذوو الاشاعات المغرضة ، بما يغضب عمر من سعد ، إذ بعثوا إلى الخليفة ، بأمر الباب الذى أقامه سعد .. ، مدعين بأنه أقامه ليحول بينه وبين الناس ، إعراضا عنهم ، وإهمالا لأمورهم .

---

(١) كساء الأعراب.

(٢) عرين الأسد .

(٣) النمل .

استدعى عمر ، محمد بن مسلمة ، ليسلم كتابه إلى سعد ويتضمن :

« بلغنى أنك بنيت قصراً جعلته حصناً ، وأسميته باسمك ، وأقمت بينك وبين الناس حائلا ، فليس ذلك بقصرك ولكنه قصر الخبال .. أنزل عنه منازل مما يلى بيوت الأموال وأغلقه ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس من دخوله ، وتبعدهم به عن حقوقهم ! » .

وانطلق محمد بن مسلمة إلى قصر سعد .

محمد بن مسلمة :

أسلم بالمدينة ، وشاهد بدراً وأحداً . وكان فيمن ثبت مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، يومئذ حين ولى الناس وفروا . شهد المشاهد كلها مع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم عدا تبوك ، إذ استخلفه رسول الله على المدينة ، حين خرج إلى تبوك .

وقد بعثه الرسول القائد على رأس بعض المغارز ، وأمره على الخيل فى بعض غزواته .

كان موضع ثقة الخلفاء بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

عينه عمر بن الخطاب مفتشاً إدارياً عاما على الولاة والأمراء .

وقد اعتزل الفتن مع من اعتزلها من كبار الصحابة ..

توفى بالمدينة وهو فى السابعة والسبعين من عمره .

مهمة محمد بن مسلمة :

كلفه عمر بن الخطاب أن يتولى حرق باب قصر القائد سعد ، فور وصوله إلى الكوفة ، وفق أمره :

« اعمد إلى القصر ، حتى تحرق بابه ، ثم ارجع عودك على بدئك » .

فور وصول محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، اتجه بادىء ذى بدء إلى القصر فأشعل النيران فى بابه ، ولم يبرح المكان حتى احترق الباب عن آخره !

سرى الخبر فى الكوفة مسرى الريح ، حتى وافى سعداً الذى أيقن أنه لا يجرؤ على هذا العمل سوى رسول أمير المؤمنين .

وعندما علم سعد أن القادم من قبل الخليفة رسوله محمد بن مسلمة ، أسرع إليه ساعياً ، وتسلم منه كتاب الخليفة ، وقرأه . إستاء سعد لمجافاة بعض الناس للحقيقة ، وتنكرهم لها .

وأوضح سعد لمحمد بن مسلمة أن مجاورة السوق الكبيرة لداره واندفاع الكثيرين إليه دون نظام ، تسبب فى دوام الصياح والضوضاء ، مما يعطل أعماله ، ويعوق تقدمها .

لذلك آثر أن يقيم للقصر بابا حفاظا على النظام التام ، والعمل الجاد . وأقسم سعد أنه لم يفعل ما رواه الفاسقون ، وحزن لتقول بعض الحاقدين عليه . فانه لم يرد أحداً ، ولم يمنع إنسانا من دخول داره ، فداره مفتوحة للجميع ، وانه ليعمل على قضاء مصالح الوافدين إليه .

ألح سعد على محمد بن مسلمة أن يدخل معه القصر ، ويقيم به فترة من الزمن تتيح له التحرى بنفسه عن الحقيقة ، ولكنه لم يقبل .

ولما أصر محمد بن مسلمة على العودة إلى المدينة ، عرض عليه سعد مالا ، وزادا للاستعانة بهما فى طريقه ، ولكنه أبى .

اتجه محمد بن مسلمة إلى المدينة ، ولـكنه ما كاد يدنو منها حتى فوجىء بنفاذ زاده ، مما اضطره إلى أكل قشور الأشجار وأوراقها !

وبعد جهود مضنية وصل محمد بن مسلمة إلى المدينة ، وقد اعتلت صحته .

استقبله عمر ، وسأله عن حاله ، وعما أصابه !

أخبر محمد بن مسلمة بما كان منه ، ومن سعد ، وما أصابه فى طريق عودته .

لامه عمر على رفضه معونة سعد له ، إذ أن تلك المعونة من مال المسلمين ! وانها لمن حقه وهو رسول الخليفة !

لـكن محمداً أعتذر لأنه لم يأذن له بذلك من ذى قبل !

فقال له عمر :

« إن أكمل الرجال رأيا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه ، عمل بالحزم أو قال به ! » .

أخبر ابن مسلمة عمر رضى الله عنه بقسم سعد ، وأقواله .

فقال عمر :

« هو أصدق ممن روى عليه ، وممن أبلغنى ! » .

إن عمر بن الخطاب يعلم عن يقين أن سعداً حقق كل أعماله العظيمة ، مقتديا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، مستهدفاً رضاء الله تعالى ، فهو الذى يسعى جاهداً أن يكون من الصفوة المختارة فى الدار الآخرة التى خير وأبقى ، والتى قال عنها الله عز وجل :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

تحقيق علني مع سعد :

لم تنعم الكوفة بالهدوء والاستقرار ، إذ شاب بعض الأفراد حقداً ، مروعاً ، وخسة رهيبه ..

ان جمعاً من قبيلة بني أسد أشقاهم اشتهار أمر سعد ، وعلو صيته !!

وأثار حقدهم تفوقه الحربي ، وانتصاراته المتتالية !! فتحركت في نفوسهم النزعة القبلية التي عهدوها في الجاهلية ..

فطالما إزدادوا غماً ، وألماً طاغياً ، وهم يرون التفاف الناس حول سعد ، مؤثرين إياه باعزازهم وثقتهم ، معجبين بمقدرته في الحروب ، مبهورين بشخصيته الكريمة النادرة .. وتلظت قلوب الحاقدين ، وهم يرون سعداً أمامهم يعلو ، علواً شاهقاً .. ، ويرتفع شأنه في العالمين ..

استبد بهم شيطان الحقد الذي أغراهم بالدس الوضيع ، للوقيعة بين سعد وعمر ..

فسعى هؤلاء الأفراد بالأقوال الباطلة لدى أمير المؤمنين ، مثيرين إياه بتهم جسيمة لا أساس لها من الصحة ، متقدمين بادعاءات وهمية جسدها الشيطان الذي أوغر صدورهم ، وأعمى بصيرتهم ، إذ تمادوا في غيهم وضلالهم ، متهمين سعداً بالظلم ، بل جاوزوا المدى عندما عابوا على سعد صلاته ..

لقد شكا أولئك المضللون سعداً إلى عمر في أحرج الأوقات ، في اللحظات الخطيرة التي يتهدد فيها كيان المسلمين في فارس حيث تجمع الفرس في حشود ضخمه في نهاوند للاشتباك مع المسلمين ، إنتقاماً منهم ، وتشتيتاً لشملهم ، مما أوجب يقظة المسلمين واهتمامهم ، واستعدادهم لمجابهة الموقف الخطير ، بمجابهة قوية حاسمة ..

في تلك الظروف الدقيقة ، أرسل عمر بن الخطاب، محمد بن مسلمة إلى الكوفة لمحاسبة سعد ، والتحقيق معه ..

وكانت إجراءات التحقيق علنية ، إذ أن محمد بن مسلمة كان يأخذ سعداً من مسجد إلى مسجد ، سائلا المسلمين عنه ، وعن سيرته !!..

أجمع المسلمون الذين التقى بهم محمد بن مسلمة فى المساجد ، وفى كل مكان على الإشادة بمناقب سعد ، وتعداد مآثره .. والتحدث بحسن سيرته .. ، وكمال خلقه ، وقوة إيمانه .. وأعلنوا أنهم يتمسكون بولايته الرشيدة عليهم ، وقيادته الحكيمة لهم .

وصرحوا بأنهم يؤثرون سعداً بحبهم واحترامهم ، وأنهم لا يرضون عنه بديلا !!

إنتهى المطاف بمحمد بن مسلمة إلى مسجد بنى عبس حيث قال محمد بن مسلمة :

« أنشد الله رجلا يعلم حقاً إلا قال » .

فأجابه أسامة بن قتادة :

« اللهم إذ نشدتنا ، فانه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى الرعية ، ولا يغزو فى السرية » .

فقال سعد :

« اللهم إن قالها كاذبا ، ورياء وسمعة ، فاعم بصره ، وأكثر عياله ، وعرضه لمضلات الفتن » ..

فلم يسلم أسامة بن قتادة من العمى بعد ذلك . واجمع لدى ذلك الفاسق عشر بنات ، وكان يسمع خبر المرأة فيأتيها حتى يجسها ، فاذا عثر عليه قال :

« دعوة سعد الرجل المبارك !! »

وقدم إلى عمر ، محمد ابن مسلمة ، ومعه أصحاب الشكوى الكيدية ، والقائد سعد ..

وقال عمر لسعد : « ياسعد ، ويحك ، كيف تصلى ؟؟ »

فأجابه سعد بما طمأنه على صلاته ، وكافة أعماله ، ذاكرا له سبقه فى الإسلام عن عقيدة راسخة ، وإيمانه الوطيد أن الله الذى يرانا هو المطلع على أعمالنا ، وهو الذى يحسبها علينا ، ويحاسبنا بها ..

فقال عمر . « هكذا الظن بك ، ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا » .

عزل سعد :

بالرغم من براءة سعد ، فقد عزله عمر بن الخطاب ..

ولم تحل دون ذلك كل الشوامخ الخلقية التى تحلى بها ، والمكانة العالية الفريدة التى ارتقى إليها !! ..

وولى عمر مكانه ، « عمار بن ياسر » فاتهمه أهل الكوفة بالضعف ، وعدم درايته بالسياسة ..

فاضطر عمر لعزله أيضا قائلا :

« من عذيرى من أهل الكوفة ! ان استعملت عليهم القوى فجروه ، وإن وليت عليهم الضعيف حقروه .. !! »

لماذا عزل سعد ؟! :

لقد عزل عمر سعدا ، لا عن عجز أو خيانة ..

وبالرغم من ثبوت براءته فقد عزله ..

أدرك الخليفة أن بعض النفوس مشحونة بالحقد المروع ، فخشى أن تهب رياح الفتنة العاتية ، فتجتاح صفوف المسلمين المتماسكة ، وهم فى موقف خطير ، مهددين بانقضاض الفرس عليهم بعد إذ استعدوا بعتاد ضخم ، وحشود كبيرة ، فى نهاوند ...

فلم يكن من صالح المسلمين ، فى ذلك الوقت إزكاء فتنة بين قوات المسلمين ، تتسبب باندلاعها فى أوخم العواقب ، وأفدح الكوارث .

.. فاستقر رأي الخليفة عمر ، على عزل البطل سعد ، تفاديا للفتن ، ومنعا للثغرات في جموع المسلمين في الكوفة .. . ، لا سيما وأن الكوفة في ذلك الوقت قد صارت القاعدة الأمامية الكبرى ، للجيوش الإسلامية في الشرق .

موقف سعد من قرار عزله :

تقبل سعد القسوة البالغة ، والعنف الشديد ، بقرار عزله . . . .

لقد عزل سعد رغم تقول الفاسقين ظلماً عليه ، وثبوت براءته ، من أقوال المضللين . .

إن سعدا خاض تجربة مريرة . .

وإنها لشاقة على النفس ..

تجلب نكداً مؤلماً ، وهما مريرا . .

تكدر الخاطر . .

تغرق التفكير في دوامة عميقة . .

تدمى الفؤاد . . .

لقد جاهد سعد نفسه ..

لعمرى إنه لجهاد أكبر .. .

تسامى سعد بروح شفافة مؤمنة ، فوق النكد والهم ، وفوق كل ما يؤلم النفس البشرية .. .

لقد تقبل قرار عزله في هدوء ، إيثار للمصلحة العامة للمسلمين .. ومنعا لتفرق صفوفهم وكلمتهم ، وتفاديا للفتن العاتية ، والحرب الأهلية ..

إن سعدا هو القائد العقائدى العظيم الذى يهتم اهتماماً كبيراً بانطلاق أفراد الجيش إلى تحقيق الانتصارات المتتالية ، وقد ازدادوا حماسا عارما ، وقوة هائلة بفضل تعاونهم واتحادهم ..

لقد كان العزل أمراً هينا بالنسبة للمجاهد العظيم سعد الذى آل على نفسه أن يفتدى الدعوة الإسلامية ورسول الله ، بنفسه وماله .. لقد تجلت قوة شخصيته وأشرقت روحه المؤمنة وتعالى باباته وتقواه ، فوق مستوى الأحداث الصاخبة متطلعا إلى نور الإسلام يغمر الآفاق ، فازداد سعد علوا ومهابة فى المحيط الإسلامى الكبير .. لا سيا الصحابة والخليفه الذين قدروه تقديراً لائقا بمكانته الفريدة ..

لقد حاز سعد رضاء الجميع وتقديرهم ، وكان مثار أعجابهم ، لموقفه الرائع ، وثباته القوى ..

ثم تجلى سعد بأصالته ، وحكمته فى المؤتمر الكبير الذى عقده أمير المؤمنين . وكان قد توافد إليه المسلمون ، وفى طليعتهم كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وما كادوا يجتمعون حتى حدثهم الخليفة بأمر سعد ، وحقد بعض الناس عليه لعلو صيته ، وتوالى انتصاراته ..

ثم ذكر لهم أنه عزله ، ليستبقيه فى المدينة تفاديا للنزاع الرهيب بين القبائل .. وللمشورة فى أمور القتال لكفاءته ودرايته ..

ثم تحدث إليهم فى شئون القتال ، وأخطار الفرس المحدقه بهم ، ومهمة قائد المسلمين الجديد ..

ولقد تتابع الخطباء ، وكاد الموقف يتوتر ، لاختلاف الآراء ، وعدم تلاقى وجهات النظر ..

وهنا أدرك سعد الموقف بالحجة والصواب .. .. إذ انبرى يخطب فى الناس موجها قوله إلى الخليفة عمر :

« يا أمير المؤمنين ! خفف عليك ! فانهم إنما جمعوا لنقمة وان هذا الأمر

لم يكن نصره ، ولا خذلانه لكثرة ولا لقلة .. ولكن هو دين الله الذى أظهره على يدى نبيه صلى الله عليه وسلم وجنده لقد أعزه الله بالاسلام ، وأيده بالملائكة ، حتى بلغ ما بلغ فنحن يا أمير المؤمنين على موعد من الله والله منجز وعده ، وناصر جنده » .

موقعة نهاوند :

هدأ الموقف بعد أن سيطرت عليه حكمة سعد فى المؤتمر .. واستقر رأى الخليفة على تعيين النعمان بن مقرن قائداً لجيش المسلمين آمرا إياه بالتحرك إلى نهاوند — مركز تجمع الفرس الذين احتشدوا فى عدد ضخم بلغ مائة وخمسين ألف مقاتل بقيادة الفيرزان ..

فى ذات الوقت كان على المسلمين بالأهواز الاقامة بتخوم أصبهان وفارس لقطع المدد عن أهل نهاوند ..

زحف جيش النعمان إلى نهاوند .. بعد أن أطمأن على سلامة الطريق إليها .. تولى قيادة المقدمة نعيم بن مقرن أخو النعمان ..

التقى الجيشان ..

كبر المسلمون ، وخاضوا المعركة ، بشجاعة معهودة ، وإيمان مأثور ..

اشتد القتال خلال اليومين الأول والثانى .

واضطر الفرس أن يلوذوا بخنادقهم فى اليوم الثالث ، أمام شدة ضغوط المسلمين عليهم ..

سئم المسلمون حصارهم للفرس أياما عديدة ..

وخشية تسرب الملل إلى نفوس المسلمين لانتظارهم الطويل الممل ، وهم على موعد مع القتال يتوقعونه فى أيه لحظة عمد القعقاع إلى حيلة

لاخراجهم من خنادقهم .. إذ تقدم بفصيلة من جنوده إلى الخنادق للاحتكاك بقوات الفرس الذين حاولوا صده ، وإسكاته ..

ثم لم يلبث أن تظاهر بالتراجع والفرار استدراجا للاعداء .. هنا غادر الفرس خنادقهم ، متتبعين اياه ، وقد تماسكوا حتى لا يفروا ، وألقوا - الحسك - خلفهم ، قاطعين خط الرجعة عليهم ..

فور ابتعاد الفرس عن خنادقهم ، انقض المسلمون عليهم انقضاض الأسود المتوثبة .. وحملوا عليهم بشدة ، وقاتلوهم بعنف ..

لقد كان للمفاجأة السريعة ، وضراوة القتال ، أثرهما القوى فى ارتباك الفرس والتهافت على الهروب بعد إذ قتل من بينهم الكثيرين ...

لقد انزلق النعمان قائد المسلمين فى طريقه المختلط بالدماء الغزيرة للفرس التى سالت أنهاراً . . فأحالت الطريق أوحالا ! ! ..

فاستشهد النعمان اثر سقوطه .

وسرعان ما سجاه أخوه فى ثوب ، وأوصى بكتمان خبر استشهاده حتى يتم النصر فى المعركة بعون الله تعالى . . .

وفى الليل ازدادت خسائر الفرس إذ ضلوا الطريق وهم يتخبطون فى ظلمتة .. يعقرهم ـــ حسك الحديد ـــ الذى وضعوه خلفهم من ذى قبل ، وكان مقدرا عليهم التواثب فى النيران التى أعدوها فى معسكرهم !

لقد ترصد الأجل المحتوم لهم ، فوافى الألوف منهم . . رغم تحفظاتهم وتخطيطهم ، وحرصهم على انتزاع النصر من المسلمين . .

دخل المسلمون ـــ نهاوند ـــ منتصرين . وفر الفيرزان وبصحبته أفراد من جيشه ـــ إلى همذان ـــ حيث تعقبه نعيم الذى قتله قبل أن يتمكن من دخولها .

الاستيلاء على بقية فارس :

تابع نعيم مسيرته إلى الرى ، واستولى عليها .

واستمر المسلمون فى زحفهم حتى استولوا على أذربيجان ، وجهات من أرمنية ، وما حولها ..

ظل المسلمون يتنقلون من نصر إلى نصر حتى توافد أهل فارس على الأحنف، واستقر رأيهم على الصلح !

كتب الأحنف إلى أمير المؤمنين :

« . أما بعد ، فان ملك المجوسية قد ذهب ! فليسوا يملكون من بلادهم شبرا بغير مسلم — ألا وان الله قد أورثكم أرضهم وديارهم ، وأموالهم ، لينظر كيف تعملون ! فلا تبدلوا فيستبدل بكم غيركم ! »

أما سعد بن أبى وقاص ، فقد أهتم اهتماما بالغا بتحركات القتال ، فقد عاش بفكره وبوجدانه مع جيش المسلمين ، جيشه الذى قاده من ذى قبل فى أرجاء فارس بحذق ومهارة ، وغرس فى جنوده الطاعة والنظام .

إن سعداً هو الذى قاد الرجال المسلمين فى طريق النضال الشاق ، مذللا لهم العقبات ، مجنبا إياهم شراك الفرس ، متيحا لهم فرص التفوق على الأعداء ، مذيقاً إياهم الانتصار الذى لا ينسى ! فكان سعد يغادر المدينة سعياً وراء أنباء جيش المسلمين .. حتى انتهى إليه نبأ الانتصار الحاسم الذى أسعده سعادة عظيمة .

فطالما سكب سعد من روحه الطاهرة فيضا من النفحات الطيبة تلهب الحماس فى قلوب الجنود المسلمين .. منيراً أفئدتهم بنور الإيمان ، مذكراً إياهم دائماً أنهم يجاهدون الظلم والاستبداد

والوثنية فى شخص كسرى وقائده .. ليفسحوا الطريق للدعوة الإسلامية .. بعد زوال كسرى وأعوانه ، رؤوس الفساد والكفر الذين سخروا الفرس ليدافعوا عنهم ..

ما أعظم الفرق بين جهاد المسلمين ، ودفاع الفرس ، وما أبعد المدى بينهما ..

لقد كان جهاد المسلمين مقدسا فى سبيل الحق فى سبيل الله تعالى ..

بينما كان دفاع الفرس عن يزدجرد ــ الملك المستبد ــ وعن أملاكه الشاسعة ، ومقتنياته الغالية التى اغتصبها هو وأجداده ظلما وعدوانا ..

كما كان دفاع أهل فارس عن الوثنية والضلال ..

فجاء الحق وانتصر ! !

وزهق الباطل واندثر ! !

لذلك حقق سعد رسالة الفتح، والدعوة الإسلامية الجديدة فى بلاد فارس ..، على أنقاض الوثنية التى زلزلها زلزالا شديدا ، وحطمها تحطيما جبارا ؛ فكان زوالها وإشراق نور الإسلام ..

بين الهرمزان ملك الاهواز ، وبين خليفة المسلمين :

لقد ارتبط هذا الموضوع بحادثة مروعة رجت الأمة العربية، وبعبر وعظات كما يتضح مما يأتى :

أولا : ملك الأهواز :

لقد تزعم الهرمزان للمؤامرة التى تستهدف استخلاص فارس من حوزة المسلمين ، والابقاء على وثنيتها ..

انطلق النعمان بجيش من أهل الكوفة .. ، فقطع السواد ، وجاوز دجلة ، متجها إلى الأهواز . . .

بادر الهرمزان فبادر إلى قتال المسلمين الذين أوصاهم سعد بالاستبسال لاسيما وهم يقطعون آخر مرحلة من مراحل الجهاد فى فارس .. ليستكملوا النصر ، ويؤمنوا أنفسهم ويسيطروا سيطرة محكمة على كل الأراضى الفارسية . . .

احتل المسلمون المدينة بعد قتال مرير ، أوغلوا خلاله فى الفرس قتلا وتشريدا ..

حاول الهرمزان أن يلوذ باحدى القلاع ، ولكن بعض الجنود تعقبوه إلى مخبئه . . .

حاورهم الهرمزان ، كسبا للوقت ، وطلبا الأمان . . أخبرهم أنه إذا دافع عن نفسه إلى آخر سهم ، فانه سوف يصيب منهم مائة بين قتيل وجريح . . وأنه يرى من الأصوب أن يتولى الخليفة أمره ، محددا مصيره ...

وقف الهرمزان مستسلما ، بعد أن ألقى أمامهم بقوسه .. فشد المسلمون وثاقه واقتادوه إلى القائد الذى بعث به إلى سعد ..

كتب سعد إلى عمر يستأذنه فى أمر الهرمزان ، لوضعه السلاح ، واستسلامه على شرط .

وكان عهد المسلمين لا حنث فيه ، ولا عدول عنه ..

لذلك أيد سعد العهد ، ووافق عمر على إيفاد الهرمزان إلى المدينة . .

ثانياً : الهرمزان يخدع الخليفة !!

واصلت القافلة سيرها ، حتى وصلت إلى المدينة ومعها الهرمزان مقيداً ، وقد تملك المسلمون العجب والدهشة وهم يرون الهرمزان يرفل فى أروع ثياب للغنى والعز ، ولا يحمد الله تعالى بل يجحد فضل الله عليه . .

أيقنوا بحكمة الله وعدله ، وهم يرون الهرمزان ، وقد حاق به الذل والهوان جزاء كفره وجحوده . .

وما يظلم ربك أحدا ...

ذهل الهرمزان عندما التقى بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، إذ أبصره فى ملبسه الخشن ، ووحدته .. .

وأدركت الهرمزان الدهشة البالغة وهو يرى أمير المؤمنين ، متواضعاً ، زاهدا .. ، لا يحوم حوله الحراس والحجاب . ولكنه يلوذ بمسجد الله تعالى وقد تجلت نعمة الله عليه ، فتألق بالهيبة والكرامة ...

نظر عمر إلى الوافد الغريب إليه ، فى زيه المثير : كسوة من الديباج يرتديها وتاج مرصع باللالىء والجواهر على رأسه !!...

وسأل من حوله :

هل هو الهرمزان ؟ !

فأجابوا :

نعم .

أخذ عمر يتأمله ملياً ثم قال :

« أعوذ بالله من النار ، وأستعين بالله ، والحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا ، وأشياعه » .

ثم صدرت أوامر عمر بتجريد الهرمزان من ثيابه الفاخرة وحليه وجواهره ليلبس الثياب الخشنة مثل أهل البادية .. !!

ثم سأل عمر الهرمزان:

« ما عذرك ، وما حجتك فى انتفاضك مرة بعد أخرى ؟ ! »

حاول الهرمزان المداورة قبل الإجابة ، إذ قال لعمر :

« أخشى ألا تبقى على حتى أخبرك بأمرى » .. .

وبلهجة عامرة بالإيمان بعيدة كل البعد عن الغدر ، طمأنه عمر :

« لا تخف فأنت بأمن ! » ..

فاحتال الهرمزان متعللا بالظمأ الشديد ، راجيا السماح له بالشراب .. .

وما أن أمنه عمر حتى أسقط الكأس دون أن يشرب قطرة منه !!

فأعاد عمر طلب الماء له ولكن الهرمزان قال له :

مالى حاجة إلى الشراب .. وإنما أردت أن يؤمن جانبى فلا تفتك بى !!

فقال عمر :

وما يؤمنك ؟ !

قال :

عهدك بأنى آمن حتى أشرب الماء ، وأنا لم أشربه ، ولا أستطيع شربه ..

قال عمر :

لقد خدعتنى — والله لا أنخدع إلا المسلم !

فبادر الهرمزان ملك الأهواز إلى إعلان إسلامه .. بعد إذ رأى رجالا شرفاء مؤمنين ، يحترمون العهد ، ويتمسكون بالقيم السامية ، تحف بهم المهابة والوقار ، وهم فى ملبسهم الخشن ، ومعيشتهم البسيطة ..

ثالثاً : الهرمزان المسلم :

قبل عمر دخول الهرمزان فى الإسلام ، وأفهمه أنه له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم . .

وفرض عمر عطاء للهرمزان يمكنه من المعيشة كما كان من ذى قبل ، جاعلا له إقامة دائمة بالمدينة ، ينعم بالعزة والكرامة فى رحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متمتعا بنور الإسلام فى البقاع الطاهرة ...

رابعاً : سعد المنتصر :

حفلت صفحات سعد فى سجل الخلود ، بتقويض عرش الطغاة من عباد النيران،الأكاسرة ، وحفلت أيضا بإسلام زعيمهم الكبير الهرمزان ملك الأهواز .

وهكذا أطفأ سعد نيران الشرك فى فارس ، مفسحا الطريق لنور الإسلام ، يغمر تلك البلدان السحيقة ، ليجلو غياهب الظلمات عن أفئدة الفرس ، محرراً عبيد كسرى ، الذين دخلوا فى دين الله أفواجا ..

وإن تعليمات رسول الله وبشائره المتحققة لتنساب أمام سعد مضيئة طريق حياته بضياء جنبه العثار ، قائدة اياه إلى أوج المجد والانتصار !!

خامساً : عمر الخليفة الرشيد العظيم :

دامت خلافه عمر بن الخطاب رضى الله عنه أكثر من عشر سنوات ، اتسعت فيها رقعة الأمة الإسلامية ، وامتدت إلى بلاد فارس ، واتسمت بعدالة أثرت عنه ، ذاع صيتها ، وأمانة تشدد فيها ، ولم يتجاوزها فى كل تصرفاته ، إذ كان عف النفس ، زاهدا ، عظيم الإيمان . . .

وتجلت فى قدراته ، وخبراته ، وعبقريته التى تحير الدارسين بعمق مداها ، وشدة أصالتها .

سادساً : قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

ذات يوم أرسل المغيرة بن شعبه غلاما مجوسيا يدعى أبو لؤلؤة من أهل نهاوند إلى الخليفة ليستخدمه أهل المدينة فيما يعود عليهم بالنفع إذ أنه يعمل حدادا ونقاشا ونجارا . . .

مكث فى المدينة فترة من الزمان ثم ذهب إلى عمر يشكو إليه كثرة خراجه إذ أن المغيرة جعل عليه درهمين يوميا . . ولكن الخليفة ، أقر وضع الغلام المجوسى الذى لم يرتض قرارا أو حكما . .

وعندما مر الغلام المجوسى على عمر فى اليوم التالى ، قال له عمر :

ألم أحدث عنك أنك تقول : لو شئت أن أصنع رحا تطحن بالريح لفعلت ، ؟!

قال أبو لؤلؤة :

لأصنعن لك رحا يتحدث الناس بها .

ثم مضى أبو لؤلؤة ...

أما عمر فقد قال لمن حوله :

ـــ انه يتوعدنى !!..

ثم توالت الأحداث الدامية الأليمة بسرعة ..

لقد تربص أبو لؤلؤة فى إحدى زوايا المسجد الذى يصلى عمر الفجر فيه .. ، وعندما مر عمر بمكانه ، انقض أبو لؤلؤة المجوسى عليه . . ، طاعنا إياه بالخنجر ثلاث طعنات تسببت فى مقتله عام ثلاث وعشرين من الهجرة ..

وقبل أن يجود عمر بأنفاسه الطاهرة ، بادر بتعيين سعد ضمن الستة المرشحين للخلافة ..

ولكن سعدا خلع نفسه من الخلافة !! فان سعدا يجاهد من أجل الغرض الاسمى وهو حوزته للرضاء الالهى ، ونشره للدعوة الاسلامية .

وانتحر أبو لؤلؤ المجوسى بعد جريمته المنكرة البشعة ، التى توقعها عمر بصادق إحساسه وإلهامه ..

ولقد تحدث عنها ــ كل الناس ــ كما ذكر ذلكم السفاح الآثم من ذى قبل وكان أبو لؤلؤة قد طعن إثنى عشر رجلا ، مات من بينهم ستة ، قبل انتحاره ..

وتملكت عبيد الله بن عمر نوبة عنيفة من الغضب الوحشى لمصرع أبيه !!..

سابعا : قتل الهرمزان :

انطلق عبيد الله بن عمر مسرعا إلى الهرمزان ، فقتله بسيفه ، لأنه أعطى أبا لؤلؤة الخنجر الذى قتل به عمر ..

ولقد خشى الناس الاقتراب منه لهياجه الشديد ، وسابقة قتله . . وإنذاره باهدار دم كل من يشبته فى صلته بمقتل أبيه . .

ولكن سعدا انقض عليه ، وانتزع منه السيف، وجذبه من شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، ثم اقتاده إلى داره وحبسه فيها ..

ثامنا : بين ابن الهرمزان ، وبين عبيد الله :

بعد مشاورات عنيفة دامت ثلاثة أيام ، بايع المسلمون عثمان بن عفان أميرا للمؤمنين ..

وتحدث الخليفة الجديد بأمر عبيد الله بن عمر واستمع إلى الآراء التى تحدد مصيره ...

فجاءه رد قوى حاسم :

« أرى أن تقتله » .

ولكن بعض المهاجرين صاحوا :

ـــ قتل عمر بالأمس ، وابنه يقتل اليوم !! ..

ثم انبرى أحدهم ليعفى الخليفة من الحرج قائلا :

ـــ إن الله قد أعفاه من الحادث الأليم الذى تم فى وقت لا سلطان له فيه ..
ولكن الخليفة عثمان أمر باستدعاء ابن الهرمزان ، وإحضار عبيد الله بن عمر ..

ولما مثل ابن الهرمزان ، وعبيد الله بن عمر ، بين يدى أمير المؤمنين التفت الخليفة إلى ابن الهرمزان قائلا له :

ـــ يابنى ، هذا قاتل أبيك ! وأنت أولى به منا ، فاذهب ، واقتله ! فانطلق ابن الهرمزان ، وفى قبضته قاتل أبيه ، وقد أباح له الخليفة دمه قصاصاً عادلا ..

وبعد فترة من مسيرة ابن الهرمزان ، وعبيدالله يتبعه ، متوقعا إعدامه بين لحظة وأخرى ..

التفت ابن الهرمزان إلى الرجال الذين يتبعونهما قائلا :

— ألى قتله ؟

قالوا :

— نعم ..

قال :

— أفلكم أن تمنعوه ؟!

قالوا :

— لا..

قال :

— إنى أتركه لله ولكم !!..

أطلق ابن الهرمزان سراح عبيد الله قاتل أبيه .

فكبر ابن الهرمزان فى أعين المسلمين !..

لقد أعجبوا به واحتملوه على رؤوسهم وأكفهم..

وعادوا به إلى منزله وهم يشيدون بسمو خلقه . .

مقدرين صفحه الجميل ...

وعفوه العظيم ...

سعد فى عهد عثمان بن عفان :

أوصى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أن تنحصر الخلافة من بعده فى ستة رجال ذكرهم بالاسم من بينهم سعد بن أبى وقاص ولكن سعدا

خلع نفسه من الخلافة زهدا ، وورعا ، وحسبه ما قام به من فتوحات إسلامية خالدة ، ينطلق فيها نور الهداية ، ويظل متألقا إلى يوم الدين .

كما أن عمر بن الخطاب أوصى الخليفة من بعده ، أن يتولى سعد عملا من الأعمال الهامة ، لصلاحيته التامة ، ومكانته الكبيرة .

لقد أنشأ سعد الكوفة ، وأصلح من شأن المسلمين بها . ويعرف كل شيء عنها . ويستطيع توجيه المسلمين فى أعمالهم ، مستهدفا إرضاء الله ورسوله .

لذلك عزل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، والى الكوفة ، المغيرة بن شعبة ، موليا ابن أبي وقاص ، الكوفة مرة أخرى .

أدار سعد شئون المسلمين إدارة رشيدة ، تتسم بالحكمة ، والعدل ، فأنصف المظلومين ، وأجزل العطاء للمستحقين .

فكان سعد لجميع المسلمين ، ملاذا ورجاء ، وأملا

فحقق الآمال الكبيرة ، المعقودة عليه ، إذ قام بكافة الأعمال المنوطة به خير قيام ، مقتديا بالرسول صلى الله عليه وسلم فى كافة تصرفاته .

اضطر سعد للاستدانة من بيت المال ، لكثرة نفقاته ، فانه لعمرى المؤمن الكريم الذى لا ينضب معين عطائه للمحتاجين والمكروبين .

طالب عبد الله بن مسعود أمين بيت المال سعداً ، بسداد الدين .

وطلب سعد من ابن مسعود الإنتظار حتى يخرج عطاؤه ليسدد ما عليه !

ولكن ابن مسعود لم يقبل رجاءه ...

وذات يوم ، تشدد ابن مسعود فى مطالبة سعد بالسداد أثناء اجتماعه مع ابن أخيه القائد هاشم بن عقبة ، ورجال اخرين .

لام سعد ، ابن مسعود على عنفه ، وتشدده

اشتد النزاع ، وسرى أمره إلى الخليفة عثمان بن عفان ، الذى بادر إلى عزل سعد ، وتعيين الوليد بن عقبة تفاديا لتفاقم الخلاف ، ومنعاً من إحداث ثغرة فى صفوف المسلمين فى الكوفة التى لها حساسيتها وأهميتها .

كظم البطل سعد غيظه ، فهو لا يعصى للخليفة أمراً .

وتقبل أمر العزل الثانى ، بنفس الروح المتسامية الكريمة .

حزن ابن سعد حزنا عميقا وهو يرى أباه البطل المنتصر ، يعزل للمرة الثانية، ويغادر الكوفة التى أنشأها ، ويودعها الوداع الأخير متجها إلى المدينة .

وثار الابن ، وراح يردد :

« كيف يفعل عثمان هذا ، ونحن الذين جئنا به إلى الخلافة ! »

وتحدث عن دور سعد الكبير فى دعم الخلافة بعد نزع نفسه منها ، واستمر فى تعداد مآثره .

ولكن سعداً التفت إلى ابنه قائلا :

« يابنى ! إياك والكبر ، وليكن فيما تستعين به على تركه ، علمك بالذى فيه كنت ، والذى اليه تصير ، وكيف الكبر مع النطفة التى منها خلقت ! . والغذاء الذى به غذيت ! .

إن مكانة سعد الكبيرة فى الإسلام ، كانت توجب امهاله إلى ميسرة ، لاسيا وأنه قدم نفسه وماله فداء للدعوة الإسلامية .

وكان الأجدى ، حفظا لكرامة سعد ، وصونا لها ، تثبيته فى ولاية الكوفة التى أدارها بكفاءة وأمانة ، وإعادة الصفاء بين رجلين من كبار المسلمين شأنا ومكانة ، بعد أن يعتذر عبيد الله بن مسعود إلى القائد المؤمن سعد الذى يسلك السبيل السوى ، والذى له من آثاره الخالدة ، وشخصيته الرائدة ، مايجعله أهلا لكل تقدير وتوقير .

موقف سعد من الفتنة الكبرى

اندلعت الفتنة فى صفوف المسلمين .

وزحفت الجماهير الثائرة إلى بيت عثمان بن عثمان أمير المؤمنين ، مزمجرة غاضبة .

وذهل الكثيرون ، وأهمهم الأمر ، وأحزنهم أكبر الحزن ، وهم يشاهدون الثوار ، مندفعين فى ثورتهم ، متجاوزين الحدود ، ممعنين فى المروق .

لقد أصر الثوار على حصار بيت الخليفة عثمان بن عفان ، وإنه لمن أقرب المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الذى قال عنه يوما : « ماضر عثمان مافعل بعد اليوم » .

فاعتصم الخليفة بكتاب الله تعالى ، يتلو فيه .

ولكن الثوار ازدادوا ضراوة ، وتعطشا للدماء ، فتسلقوا أسوار منزل الخليفة ، وارتكبوا إثما كبيرا ، وترددوا فى غياهب الجاهلية ، بقتلهم خليفة رسول الله مما ألم الكثيرين وأحزنهم ومن بينهم سعد بن أبى وقاص .

وتطاير شر الفتنة الهوجاء بالمدينة .

وصار لهيبها ينذر جموع المسلمين بالفرقة والتفكك . والمآسى الدامية ! .

إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، توجه المسلمون لمبايعة على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، بالخلافة .

ولكنه رفض . بادىء ذى بدء .

واتجه الكثيرون إلى دار سعد حيث أخبروه برفض علي الخلافة ، طالبين منه قبول مبايعته .

ولكنه أبى قائلا :

إني وابن عمر قد نزعنا أنفسنا . فوالله لا نرجع إليها أبداً !.

اتسعت هوة الشقاق بين المسلمين .

وتنافرت القبائل .

واحتكم المسلمون إلى السيف !

كان سعد من أكثر الناس حزنا وألما لما تردى إليه المسلمون .

فهاهو تيار الفتنة يجرفهم إلى أنهار من الدماء !

وهو الذي بذل من نفسه ، ومن ماله ومن جهاده الشاق المرير ، ليحتفظ بالمسلمين متحدين ، متماسكين ، يخوضون المعارك ، بفكر واحد . وقلب واحد .

يهزون الممالك هزا عنيفا .

وتتهاوى تيجان الملوك تحت أرجل خيلهم .

ويعودون منتصرين ،

إخوانا متحابين متحدين .

اعتزل سعد الفتنة الكبرى ، مذعنا لقول الرسول :

« ان تكون فتنة ، خير الناس فيها الخفي التقي » .

فآثر سعد العبادة ، والتقوى ، وآثر مافيه وحده كلمة المسلمين ، وما فيه صالحهم وخيرهم . والحفاظ على حياتهم .

متساميا فوق الأحداث الرهيبة . بروح المؤمن القوي . الثابت على عقيدته .

فكان إيمان سعد عظيما يشع نوراً لا يخبو ...

وجهاده صادقا لا يتبدل ، ولا يتغير ..!

ابتعد سعد عن المجازر البشرية التى تستنزف قوى الأمة الإسلامية .. واعتصم بداره بالعقيق لا يبرحها .

وذات يوم طلب القائد هاشم من عمه سعد أن يقبل مبايعة الناس له بالخلافة ..

ولكنه لم يقبل ..

ولما ألح هاشم مؤكداً له أن مائة ألف سيف يرونه أحق بالخلافة من سواه ، ويجمعون رأيهم على مبايعته ..

رد سعد قائلا :

ـ هون عليك ياهاشم ! إنها عبء ثقيل !

ولما لمح غضب هاشم ، قال له فى هدوء .

ـ ولكنى أقبلها يا هاشم بشرط واحد !!

أسعد هذا القول هاشم ، فصاح مهللا :

ـ مر يا عماه .. أى شرط تريد ؟!

فقال سعد :

ـ أريد من المائة ألف سيف ، سيفاً واحداً ، إذا ضربت به المؤمن لم يقطع ، وإذ ضربت به الكافر قطع !!

فأدرك هاشم استحالة قبول عمه للخلافة ..

وانتهت البيعة إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ..

وكان سعد يرى أن علياً أحق الناس بالخلافة .. وإن لم يبادر إلى بيعته ..

واندفع فريق من المسلمين فى تيار الفتنة الجارف .. يتصدون لقتال على ابن أبى طالب أمير المؤمنين ..

إنه لعمرى على ، الذى جمع بين أروع المزايا ، استقامة وأمانة وشجاعة ، وزهداً وورعاً ..

وهو الذى حظى برضاء الله ورسوله الذى قال عنه :

« من سبنى فقد سب الله — ومن سب عليا ، فقد سب محمداً » . فما بال التجرؤ عليه .. والاندفاع إلى قتاله ..!!

ولم يكن سعد راضياً عن وقوف ذلك الفريق من المسلمين ، يعادى علياً .. رافعين سيوفهم عليه ، للجرأة فى ذلك على الإســلام ، وجحود حق على ، والتنكر له ..

فهو الذى جاهد جهاد الأبطال الخالدين فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وهو الذى اعتز الرسول بقرابته ، وبحسن مسلكه ، وعاطر استقامته ..

ومما يزيد فى موقف أعداء على ، شروراً وعدواناً ، تلك الهوة السحيقة التى يدفعون اليها المسلمين ، عاملين على تفكك الأواصر ، وتمزق الروابط ، متسببين فى مقتل ألوف من الأبرياء ، محدثين ثغرة خطيرة فى صفوف المسلمين ، تمكن الاعداء من التسلل منها ، والانقضاض على الخطوط الدفاعية المضطربة للمسلمين .

لقد حاول على بن أبى طالب درء الخطر الداهم عن الأمة الاسلامية ، بمناشدة الأقوام إقرار السلام ، والتمسك بدين الله تعالى ..

ولـكن علياً لم يجد آذاناً صاغية .. أو استجابة لندائه ..

فقد أشعل معاوية بن أبى سفيان الوقود اللازم للفتنة ..

مضللا الأقوام .. خادعاً إياهم تحت ستار المطالبة بدم عثمان ..

دافعاً إياهم الى ساحة قتال إخوانهم فى الدين الاسلامى ..»

متبعا الأساليب الملتوية ليصل الى كرسى الحكم .. بأفظع الطرق ، وأكثرها غواية وفتنة ، وأشدها خسة ، وأكثرها نفاقا ، وأغزرها دماء .

فأكره على ، لخوض القتال ، تقويما المنحرفين ، وصونا للحق ، والدعوة الاسلامية ..

وازاء اعتزال سعد الفتنة الكبرى .. طمع فيه معاوية . . فكتب اليه يدعوه ، بحجة اعانته على المطالبة بثأر عثمان .

فرد عليه الشاعر المؤمن سعد بما يلى :

معاوى داؤك الداء العياء
وليس لما تجىء به دواء
أيدعونى أبو حسن على
فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له أعطنى سيفا بصيرا
تميز به العداوة والولاء
فان الشر أصغره كبير
وان الظهر تثقله الدماء
أتطمع فى الذى أعيا عليا ؟
على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حيا
وميتا أأنت للمرء الفداء
فأما أمر عثمان فدعه
فان الرأى أذهبه البلاء

لقد كان سيف سعد ، للمسلمين لا عليهم !!

بينما وجد معاوية فى الفتنة التى عصفت بالمجتمع الإسلامى فرصته السانحة ، وأمله المرتقب ، للانقضاض على كرسى الخلافة من غير حق ، أوسند شرعى..

احتال معاوية بخدعه بعيدة كل البعد عن العهد والشرف ، تتفق مع أساليب المنافقين . .

خدع فى التحكيم « أبو موسى الأشعرى » ، حين غرر به عمرو بن العاص ، الذى وسوس له أن يتخليا عن على ، ومعاوية ، ليتولى أمر المسلمين أحد غيرهما ، فصادف ذلك هوى فى نفس أبى موسى ، وتحمس له ، معلنا تخليه عن على ومعاوية ..

ثم قام عمرو معلنا :

خلع على ، وتثبيت معاوية . .

وما أبعد المدى بين الاثنين ، وما أعظم الفرق بين على ومعاوية . . وما أشد الاختلاف فى مكانة كل منهما فى الإسلام ، وجهاد كل منهما فى سبيل الدعوة الاسلامية ..

ان عليا لصاحب راية رسول الله وآله يوم بدر ..

بينما كانت راية المشركين مع معاوية وأبيه !!

ثم لقيهم على يوم الأحزاب ، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وراية الشرك يزهو بها معاوية !!

لقد تزايد الكرب ، واشتد البلاء ، وقتل الكثيرون . . من خيرة المسلمين ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

إن الفتنة الكبرى الدامية التى صمم سعد على اعتزالها ، حتى لا يزيد فى اشتعالها ، قتل فيها من فريقى المسلمين فى مائة يوم وعشرة أيام ، مائة ألف وعشرة آلاف من المسلمين . من أهل الشام تسعون ألفاً .. ومن أهل العراق عشرون ألفا ..

هذا عدا أعداد كبيرة لم يدركها الحصر ..

من القتلى الذين ابتلعهم اليم ، وأكلتهم السباع !!..

ولكن سعداً يعتز بتقويض دعائم الشرك .

مطيحا بالكفار بسيفه القاطع . .

متفادياً الوزر الكبير ، بخلطه بدماء المسلمين ، صوناً للأرواح الطاهرة ..

وإبقاء على القلوب السليمة .. التى تنبض بحب الله ورسوله .

سعد يقتدى برسول الله

الرسول الكريم أعظم قدوة ، وأعلى مثل للناس أجمعين .

إن سعدا الذى تمتع بخلق كريم ، وتحلى بالصفات الحميده ، كان يقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فارتقت روحه ، وزكت نفسه ، وعمر قلبه باليقين والإيمان ، واقترنت أعماله بالنقاء المصفى ، والصفاء الأصيل .

تغلبت قوة يقينه على تصرفاته ، فنأت عن كل مايشين ، وبعدت عن كل شبهة ، وسمت فوق كل اعتبار .

فخلف سعد ذكرى فواحة العطر ، تنتشر فى العالم شذا رائعا ، وأريجا نادرا .

وصارت سيرته تشع نوراً ، تمد الأجيال بالضياء القوى ، منيرة أفئدتهم بنور الإيمان ، مضيئة طريقهم بأضواء الهداية والمثل .

إن سعدا الذى تمتع بالشوامخ الخلقية الفريدة فى ظلال السيرة النبوية العظيمة ، وتنسم أريجها ، واهتدى بنور هديها ، واستمع إلى الأحاديث الشريفة ، فحفظ الكثير منها ، متمثلا بها ، راويا إياها .

وسار سعـــد فى إثر الرسول العظيم ، وانضوى تحت لوائه ، منقادا له ، متبعا إياه .

فتفجرت ينابيع الخير فى نفس سعد ، وامتلأ قلبه بنور الايمان الحقيقى ، فوضح أمام عينيه الطريق المستقيم ، طريق العزة والكرامة ، طريق النور والهداية ، طريق الخير فى الدارين .

فى مكة رأى سعد بنفسه عن كثب مدى ما يكابده رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوع وارهاق، ومن أهوال جسام :

فمن حصار عنيف طويل الأمد، إلى أذى مبرح، وأشواك تقطع الطريق، واضطهاد يسد المنافذ .

لقد رسبت فى يقين سعد الدروس والعبر التى استخلصها من الرسول القائد الإنسان، الذى تحمل كل تلك المصاعب عبر السنين الطوال فى مكة .

فلم يتطرق إلى الرسول يأس بسبب الجوع والاضطهاد، ولم يزعجه التهديد أو الوعيد، ولم يروعه التآمر على حياته الشريفة الغالية .

بل ولم يفتنه ما عرض عليه من ملك، أو مال طائل، أوعز مقيم .

ولكن الرسول استمر أشد مايكون حماسا فى سبيل إبلاغ رسالته، والدعوة إلى دين الاسلام، مكافحا مناضلا فى هذا السبيل القويم، مستهدفا هداية الناس أجمعين، ورضاء الله عز وجل .

وعى سعد مثلا عليا ظلت دائما نصب عينيه، إذ رأى الرسول يكرس حياته الغالية فى هداية الكفار الذين آذوه، وهددوا حياته، مرتقيا بهم من ظلمات الوثنية إلى حياة أفضل دينا ودنيا !

وإزاء اضطهاد القبائل المستمر، وتآمرهم، هاجر رسول الله ومعه أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه من مكة إلى المدينة، بعد أن اطمأن الرسول على هجرة المسلمين إلى المدينة قبيل هجرته .

ولقد أبى سعد أن يهاجر مع أهله إلى الحبشة حيث الأمان لهم والترحيب بهم ..

ولكن سعدا آثر أن يكون قرب الرسول يفتديه بحياته .

ثم هاجر سعد إلى المدينة ، قبيل هجرة الرسول إليها .

وهنالك فى المدينة .

آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار .

وظل يكافح المشركين ، ويخوض معهم المعارك ، مستمرا فى جهاده الشاق ، ونضاله الدامى حتى جاء نصر الله تعالى وانضوى العرب تحت لواء الإسلام .

تبع سعد بيقينه وفكره فى حجة الوداع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سار من خلفه مائة ألف مسلم أو يزيدون . والرسول يعلمهم مناسك الحج . فى خشوع .

لقد أبلغ الرسول رسالته ، وأدى أمانته ،

بعد إذ احتمل فى سبيل دعوته ماتنوء به قوى أمة عريقة المجد ولكنه لم ينتقم من أهل مكة جزاء طغيانهم وأذاهم له ولأصحابه .

وإنه ليحمد الله تعالى لإسلام أهل مكة ، وانقاذهم من الظلمات والشرك وذل الوثنية !..

إن هذا الخير العظيم أراده لهم ، وحققه بعد عذاب طويل منهم ولكنه يصفح عنهم .. ويأخذ بيدهم إلى الإسلام .. ثم إلى خارج الجزيرة العربية فيما بعد ..

فكانت تعاليم هذا الدين الكريم منارة سرمدية الضياء ، تهدى العالمين ....

وصار رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الأسوة العظمى والمثل الأعلى فى مكارم الأخلاق .:

ولم يرق إلى مكانته إنسان .. ، إذ تفرد رسول الله بأعلى ميزات خلقية ، وأروع صفات ، يحوزها إنسان منذ بدء الخليقة ..

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير الخلق كلهم
أكرم بخلق نبى زانه خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم
لاطيب يعدل ترباً ضم أعظمه طوبى لمنتشق منه وملتثم

لقد كان سعد يؤثر الرسول بالإعزاز الوثيق ، والولاء الشديد ، يحبه ويحترمه ، ويفتديه بحياته ، فيتولى الدفاع عنه ، ويقوم بحراسته فى ظلمات الليل فى أخطر الأوقات . .

لقد قدر الرسول جهاد سعد ، وهمته العالية ، وروحه الوثابة المؤمنة ، فاعتز بقرابته الوثيقة وخئولته الكريمة ..

لعمرى إن قدوة الرسول لسعد ، قد أرهفته حساً ، وملأته يقيناً ، وجعلته يشع هداية ونوراً .. ، وصيرته كالنجم يهتدى به ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » ..

لقد كان لنشر الدعوة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، هدفا أصيلا للرسول العظيم . .

فوضع سعد نصب عينيه هذا الهدف الكبير .. علم سعد أن المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة ، لكل منهم على الآخر ، ما للأخ على أخيه من حق .. كما علم سعد أيضا أن الله الذى لا إله إلا هو لا يغيب عنه مثقال

١ من بردة الأباصيرى ـ رضى الله عنه .

ذرة فى السموات ، ولا فى الأرض ، وأنه جل وشأنه برأ الناس ، ليتعاونوا على البر والتقوى ، حتى يبلغوا بالانسانية كالها ..

استوعب سعد تعاليم الرسول العظيم ، وترسبت فى يقينه ، وأنزلها فى نفسه أسمى منزلة بل صارت أقوى وأعز من نفسه وحياته ، لايعوقه أى عائق للعمل على تحقيقها بل يهدف الاستشهاد فى سبيلها !! ..

وكان من آثار تعاليم الرسول ، امتداد الفتوحات فى صدر الإسلام ، إمتداداً شاسعا ، استوعب الممالك ، والبلدان السحيقة ...

وكانت البداية القوية ، فتح مكه ، وتطهير الجزيرة العربية بفضل الله تعالى ، وقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى قاد الزحف الإسلامى ، مجاهداً ، منتصرا ..

وحارب الأبطال تحت لوائه .. فخلف من بعده قادة فاتحين وأبطالا خالدين من بينهم القائد البطل سعد بن أبى وقاص كما خلف الرسول العلماء والولاة ..

وقد ترك هؤلاء آثاراخالدة ملموسة ، وحققوا أعمالا رائعة، فملؤا الأرض كرامة ، وعدلا ونورا .. وقوضواعروش الأباطرة ...

وأنهوا عبودية الدول ..

وبالتالى حرروا العبيد ، مقيمين صرح الحرية الحقيقية التى تضىء معالم طريق الإنسانية

خرج سعد من الجزيرة العربية ، وفى صدره نور الايمان وصور مرئية غالية من حياة الرسول ، وأسوة رائعة من أخلاقه العظيمة .

فكانت الجبال لاتعوقه .

ولا البحار تصده . .

عن الوصول إلى أقصى البلاد ، وأعق المهالك . . لتحطيم آثار الوثنية بها ، تحطيما عنيفاً ، مطهرا البلدان من رجسها وعبادتها.

واقد أثبتت الأيام المتعاقبة ، على بعد الزمان المتصل ، حرص سعد وأمانته فى الاقتداء بالنبي العظيم ، مما جعله يستحق رضاء الله تعالى ، ورسوله الأمين .

أخلاق سعد ، ومزاياه

أولا : قوة شخصية سعد وشجاعته :

تتجلى فى حرصه على الأمن والنظام بعد مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، عندما ثار ابنه عبيد الله ثورة عارمة ، وأقدم على قتل من اشتبه فى علاقته بمقتل أبيه ..

كان عبيد الله ، فى عنفوان هياجه ، وذروته ، فلم يستطع أحد من الصحابة وضع حد لثوره إلا سعد ! !

لقد وقف سعد فى وجه عبيد الله ، ليكف عن مخاطرته ، ويقلع عنها ، حرصا على وحدة المسلمين !!

بادر سعد فنزع السيف من عبيد الله !! ..

ثم جذبه سعد من شعر رأسه ، حتى أضجعه على الأرض ...

ولم يكتف بذلك بل حبسه فى داره ...

ومما هو جدير بالذكر أن سعدا لم يكن وقتها ذا منصب أو سلطان ..

ولكنه الجرىء الشجاع ، المتميز بالشخصية القوية ..

ثانياً : صدق سعد وأمانته ، وعدالته :

غنمت قوات سعد غنائم ونفائس فاقت الخيال ..

ولكن إزاء تشدد سعد فى الأمانة وفقد انقاد إليه رجاله فى هذا المضمار .

تحفظ سعد بأمانة على تحف وتراث كسرى ، ونفائسه ، وقام بوزيعها بعدالة على أفراد جيشه ..

وأرسل خمس الغنائم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لتوزيعها على أصحابها وفق الشريعة الاسلامية ..

ولقد بلغ صدقه أمراً لا يعلوه شك ، أو يطرق إليه ريبة ..

وثق المسلمون خاصتهم وعامتهم ، بصدق روايته لأحاديث رسول الله ..

قال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لابنه :

« إذ حدثك سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تسأل عنه غيره »

لقد كان سعد محدثا فقيها ، لا يحدث إلا إذا استوثق تماما من صحة حفظه وروايته ..

بلغت الأحاديث التى رواها سعد عن رسول الله مائتين وواحد وسبعين حديثاً ...

ثالثاً : زهد سعد وتقواه :

بلغ سعد شأوا كبيرا فى الزهد ، وارتقى إلى القوى ارتقاء ساطعاً ..

لقد عرف سعد ربه تعالى عن يقين فاملأ قلبه بنور الإيمان ، فزهد فى دنياه وابتغى رضاء الله عز وجل ..

زهد سعد فى المناصب ، وفى الجاه ...

وهل هناك منصب يعلو عن الخلافة وأمارة المؤمنين ؟؟..

لقد امتدت الدولة الإسلامية امتدادا كبيرا بعد إذ تضمنت الممالك الهامة التى فتحها سعد ، منتصرا عليها ..

ولكنه نأى عن الخلافة ، ولبتعد عنها ، مرتين :

الأولى : رشح للخلافة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكنه نزع نفسه منها .

والثانية : قصده ألوف من المسلمين أثناء الفتنة الكبرى ليقبل بيعتهم بخلافته .. ولكنه ابتعد عنهم ، والتزم داره .

رابعاً : نفسيته المؤمنة القوية :

لم تتبدل نفسيته عندما عزل من إمارة جيوش المسلمين بعد انتصاراته الخالدة ودون ما يوجب ذلك ..

ولكنه أطاع أمر الخليفة عمر الذى عزله ، وبقى بجواره يمده بالرأى السديد والمعونة اللازمة ..

ولم تتبدل نفسيته عندما عزل من ولاية الكوفة التى أنشأها ، وقام بتخطيطها وإدارتها إدارة رشيدة ، دون خطأ منه أو سبب يستدعى ذلك ، ولكنه أطاع أمر الخليفة عثمان الذى عزله ، وبقى بجواره ، يمده بالمشورة ، ويحافظ على خلافته قدر طاقته ..

لقد أطاع سعد رسول الله ، وهو بدوره يطيع خليفتيه ، عمر وعثمان ..

خامساً : كرم سعد

ان سعدا الذى وهب حياته فى سبيل الدعوة الإسلامية ، أسهم بأموال طائلة فى هذا السبيل الكريم ..

عاد الرسول سعدا فى مرض ألم به ..

فسأله سعد :

يارسول الله هل أوصى بمالى كله ؟؟

فقال :

لا ..

قال :

فالشطر ..

فقال :

لا ..

قال :

الثلث

فقال :

« الثلث ، والثلث كثير !!

إنك إذ تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك ان تنفق نفقة تبغى بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة التى تضعها فى فم امرأتك . »

ثم توجه إلى الله رسوله الكريم ، فدعا لسعد بالشفاء ، وإتمام هجرته .

سادساً سعد يقول الحق ولا يهاب سلطاناً

إن رجال سعد ، وفق وصيته لهم ، ذهبوا إلى كسرى فى مقره ، وخاطبوه مخاطبة الند للند بل تدفق بيانهم وهم يملون شروطهم ، ويؤكدونها فى مواجهة كسرى وقائده .. قائلين الحق بقوة وشجاعة لايمانهم العميق بعروضهم عليه : الاسلام أو الجزية .. أو القتال .. مما حير أهل فارس .. وأثار دهشتهم .

أما سعد ، فقد انقض على عرش كسرى فانتزعه من براثن الطغاة المستبدين ، مطيحا بوثنيتهم ، مفسحا الطريق أمام هداية الإسلام ونوره .

ولقد تجلى ذلك أيضا عندما دخل سعد على معاوية قائلا له .

ـــ السلام عليك أيها الملك !

فضحك معاوية ، وقال :

ـــ ما كان عليك ياأبا اسحاق لو قلت : يا أمير المؤمنين !

فقال سعد :

ـــ أتقولها جزلان ضاحكا ،والله ما أحسب انى وليتها به .

يقصدسعد بذلك : الأساليب الملتوية ، التى اتسمت بالغدر والخديعة ، التى اتبعها معاوية ليصل إلى مكانة أعلى منه قدرا !! ويخوض أنهارا من دماء المسلمين ليصل إلى الملك !

خرج معاوية للحج ، فمر على المدينة ، وذهب إلى سعد فى منزله، ودعاه الحج معه ، وكان سعد آخر من بقى من أهل الشورى .

فخرج سعد معززا مكرما مع معاوية .

وبعد انتهاء مناسك الحج ، قصد معاوية دار الندوة ، وبرفقته سعد . وأجلس معاوية سعدا بجواره .

وأخذا يتحدثان ، ويذكران مامضى من أحداث !

ولما انتهى معاوية إلى الحديث عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، شرع فى سبه ...

غضب سعد غضباً شديدا ، وقام على الفور من مجلس معاوية ، قائلا له الحق في حدة ، لا يخاف سطوة ملكه ، أو بطش سلطانه .

أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سب علي . والله لأن تكون في خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس. والله لأن أكون صهرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لي من الولد ما لعلي ، أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ما قاله يوم خيبر :

« لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله . ويحب الله رسوله . ليس بفرار ، يفتح الله عليه » . أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ما قاله في غزوة تبوك : « ألا ترضى أن يكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » ، أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

وأيم الله لا دخلت لك دارا ما بقيت .

وخرج رجل الحق سعد الذي توجه الله بتاج الكرامة والتقوى . وأنه لأعظم شأنا من معاوية الملطخ تاجه بدماء المسلمين ، وعار الخديعة والنفاق !

سابعاً : تسامح سعد :

في اليوم الأول لمعركة القادسية، قاد سعد الجيوش الإسلامية بكفاءة عالية ، وتخطيط ذكي ، وسيطرة تامة ، وبالرغم من مرض سعد فانه وجه قواته توجيها صحيحا في ميدان الحرب ، فتصدت للحشود الفارسية الضخمة، وأفواجهم الهادرة،

في اليوم الأول ـــ أرمات ، والمسلمون في جهادهم الجبار . واستبسالهم في القتال رغم استشهاد الكثيرين منهم ، انزعجت سلمى الزوجة السابقة للمثنى

والتى أكرمها سعد بزواجه منها ، وتصاعد صياحها عاليا :

« ومثناه ! ولا مثنى للخيل اليوم ! »

إنها تنعى زوجها السابق المثنى !

وتعلن على الملأ الفراغ الكبير الذى خلفه !

وتذكر الأقوام بفروسية الراحل المثنى !

وتشكك المحاربين المسلمين فى مقدرة القائد سعد !

ولكن سعدا وهو قائد الجيوش الإسلامية . وأميرها صفح عنها ، وتقبل اعتذارها .

ثامنا : أخلاق سعد المبشر بالجنة . وكيف أوصلته اليها ؟

لقد اهتم عبد الله بن عمر اهتماما كبيرا لمعرفة أسرار سعد التى أوصلته إلى الجنة .

لقد سمع ابن عمر رسول الله صلى عليه وسلم يقول :

ـ « يدخل صاحبكم هذا الجنة ! »

وكرر الرسول ذلك الأمر ثلاث مرات متفرقات قاصدا سعدا ، متحدثا عنه إلى الصحابة .

استمع الى تلك البشرى الغالية عبد الله بن عمر الذى أصر على ادراك الحقيقه التى جعلت سعد يتميز بهذه الحظوة . وهذا السبق !

ذات يوم أخبر عبد الله بن عمر سعدا أن خلافا طارئا نشب بينه وبين أبيه عمر رضى الله عنه . وإنه يؤثر الابتعاد عنه فترة وجيزة ، وإنه ليرجو استضافته حتى يتم رضاء أبيه عنه .

رحب سعد الكريم بضيافة صديقه .

واسعدت عبد الله تلك الضيافة التى اتخذها ، وسيلة يستشف من خلالها الأعمال والعبادات التى يقوم بها سعد ، حتى يعلم سر فوزه برضاء الله تعالى، فيصير من أهل الجنة ..

لكن سعداً ، أمعن فى الترحيب بالضيف العزيز ، والتحدث إليه فى شئون الدعوة الإسلامية ، ثم آوى كل منهما إلى فراشه التماساً للنوم!!

تظاهر عبد الله بالنوم حتى يتمكن من رؤية سعد وهو يسهر الليل متعبداً .. ولكنه فوجىء بنوم سعد ...

لم يتطرق اليأس إلى عبدالله فى الليلتين التاليتين..ولكنه لم يصل إلى نتيجة ...

رأى عبد الله أن يصارح سعداً بالحقيقة ، التى جاء من أجلها ، إذ أنه لم يختلف مع والده عمر ، ولكنه قصد من الضيافة الوقوف على أسرار المنزلة الكبيرة التى وصل إليها سعد !!

وسأل عبد الله سعداً :

— ما الذى تقوم به لربك فى دينك ودنياك ، حتى بلغت هذه المنزلة ؟؟

التفت سعد مستبشراً مطمئناً ، وقال لعبد الله :

— والله يا أخى ما هو إلا الذى رأيته..

ولما ظهر الغضب على وجه عبد الله ، اظنون إنتابته ، بادره سعد قائلا ، مطمئناً إياه ، قائلاله :

— يا أخى لا يكون منى إلا الذى رأيت ، غير أنى أمرؤ لا أضمر فى نفسى سوءا لأحد من المسلمين ، ولا أقصد به شراً ، ولاقالة سوء !!

قال عبد الله بن عمر :

ـــ تلك هى التى بلغت بك ، ولست أطيقها !! ..

تاسعا : عمق محبته للمسلمين وصالحهم :

كان سعد ، يحب من أعماق قلبه المسلمين ، وكل ما فيه صالحهم ، لذلك لم يستبح لنفسه قتل مسلم .. بل انه وضع سيفه فى غمده ، واعتزل الفتنة الكبرى ، بعد انتصاراته الخالدة على المشركين . .

واستقر فى العتيق عابداً الله تعالى ، مزوداً بنوره .

عاشراً : هناك صفات كثيره ومميزات شتى ، أثرت عن سعد ،وعرف بها :

وان مواضيع هذا الكتاب تدل دلالة واضحة على عفة نفسه وشهامته ، وجرأته وفروسيته ، وأصالته الخلقية العريقة . .

ولقد استغل سعد كل مزاته ، ومواهبه فى إقامة صرح الإسلام عالياً، ورفع رايته منتصرة خفاقة .،. غيورا على دينه ، ذائدا عنه ، حريصاً عليه .

مزايا القائد سعد :

نلاحظ تباعاً سبق سعد بأفكاره العسكرية التقدمية الصادرة باخلاص ويقين ، ودراسة ودراية .،. مما جعل المؤرخون والعسكريون يطابقون أعماله الحربية ، بخصائص الحرب الحديثة ومبادئها . فيبهرهم أتباعه أصول الحرب، وتطبيقه مبادئها تطبيقا ممتازا ..

ولا غرو فان سعدا ذلكم البطل المؤمن الذى أراق أول دم ذودا عن الإسلام، ودفاعا عنه ..

وانه ذلكم البطل الشجاع الذى رمى أول سهم فى التاريخ الإسلامى فى سبيل الله تعالى ..

إنه القائد العام الذى قاد جيوش المسلمين إلى ربوع العالم البعيدة ، منتصرا انتصارا خالدا ، مسمعاً كلمة الحق لاولئك الأقوام ، منيرا قلوبهم بنور الإيمان ..

وأنه القائد الفاتح الذى فتح العراق ، وأكثر فارس ، وأذربيجان ، والجزيرة ، وبعض أرمينية ، ناشرا الاسلام فى ربوعها ، فرسخت الدعوة الإسلامية فى تلك البلاد الشاسعة إلى اليوم ..

وانه القائد الكفء الذى يعتبر من القادة والمعدودين خبرة وكفاءة ، ومنهجا وعقيدة ..

لقد جمع ذلكم القائد العظيم بين القيادة فى أعلى خصائصها ، وبين التقوى بصفاتها ولألائها ..

وإنه القائد العربى الذى تصدى بقدرته الحربية الفائقة وإيمانه الراسخ ، لكسرى متوليا فتح عاصمة ملكه مقوضاً عرشه الذى تروى عنه الروايات الواقعة التى تشبه الأساطير عن اغراقه فى الترف ، وتشبثه بحياة البذخ التى تسير فوق نعيم يتألق بوميض الجواهر،ويموج بأنغام الموسيقى،بين صيحات المخمورين، ومناجاة الأوثان ، وعبادة للنيران ، والاستبداد بالعبيد المنتشرين فى مذلة وهوان ..

ان سعدا هو ذلكم القائد العظيم الذى فتح الولايات العديد التى تشكل فى حدودها الحالية العراق الحديث ، ومعظم ايران ، بحدودها الراهنة من أملاك الامبراطورية الفارسية ، والقسم الجنوبى من جمهورية تركيا الحديثة من أملاك

الامبراطورية الرومانية ، آخذا بها إلى مدارج العزة والرقى ، دافعاً إياها فى طريق الهداية والنور فى ظل الدين الإسلامى ..

لذلك وجب علينا الالمام بالسيرة العاطرة للقائد الفاتح سعد بن أبى وقاص — رضى الله عنه — متتبعين آثاره ، دارسين خصائصه ، دائرين فى فلك حياته ، جاثين فى بيئته العربية ، بأحداثها التى صاحبته و متأثرين بالأجواء التى عاش فيها ، وخاض غمارها .. ، معترفين على بطولاته وغزواته التى غيرت مجرى التاريخ . ووجهته الاتجاه الصحيح فى بقاع بعيدة ، وأقطار سحيقة ، مبدلا عبودية أقوامها الموغلة فى القيود ، إلى حرية كريمة نابعة من صميم عدالة مكفولة للجميع ، تؤكدها وتحددها وفق أسس وطيدة ، ومبادىء قويمة . . ، مرتقيا بأبناء البلدان المتباينة من الوثنية المغرقة فى الضلال والظلمات ، إلى أوج الشفافية الروحية فى أسمى مجالات الهداية والنور ، ناشرا الاسلام فى الأقاليم والولايات لخير الانسانية فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة التى هى خير وأبقى . .

من مميزات القائد الفاتح سعد :

أولا : فى ظلمات الليل ، وتحت ستاره ، أتم المسئولون عن الشهداء والجرحى نقلهم إلى العذيب التى تبعد عن القادسية بأربعة أميال حيث دفن الشهداء وتولت النساء شئون تمريض الجرحى . .

ولعمر أن تلك الأعمال الأروع تدابير إدارية يتخذها قائد لاخلاء القتلى والجرحى .

ثانياً : قرار سعد باقتحام نهر دجله ، دل على المقدرة فى اتخاذ حلول هامة سريعة تتسم بالجرأة ، وتدل على شدة السيطرة ..

لقد تدارك سعد الفرس ، بمفاجاتهم قبل تنظيم صفوفهم ، والالتفاف حول

جموع المسلمين، لاسيما وأنهم يملكون وسائل المواصلات التى تنقص المسلمين فى تلك الظروف ..

وكانت مفاجأة رهيبة، لم تخطر للفرس على بال بما ملأ قلوبهم رعبا وخوفا؛ ما أثر تأثيرا خطيرا فى الفرس، فشتت شملهم، وتسببت فى هزيمتهم ..

كما أن سعدا أعد للعبور كل ما يتطلبة من تأمين وحماية لثغور المخاضة من الناحية الأخرى، وتأمين رأس جسر، مطابقا بذلك أحدث الأساليب الحربية.

ثالثا : (١) راعى القائد سعد حشد قواته قبل المعركة، والإقدام على تنفيذ خططه الحربية .. بعد إتخاذه التدابير اللازمة..

لذلك حرص حرصا بالغا على الالمام بالمعلومات التى تمده بها داورياته، والتى يدلى بها الأسرى، هذا عدا استطلاعه الشخصى !!

(٢) استفاد سعد من مبدأ التعاون بين صفوف قواته وأقسام جيشه العديدة .

(٣) اهتم سعد بالشئون الادارية فى كافة معاركه، وقد تجلى ذلك فى إعداده جميع متطلبات الشئون الادارية، قبل خوضه معركة القادسية . .

(٤) كان سعد يستفيد فى أعماله من خبرات وقدرات المختصين، فبلغت أعماله أوج الكمال بعد إذ اتسمت بالرأى الصائب..

(٥) طالما أسعف قواته، وهم فى أحرج المواقف وأصعبها، بقراراته السريعة الحاسمة، إذ كان يتحلى بذكاء خارق، وعقلية متزنة، وأفق متسع .

(٦) اعتنى سعد عناية تامة برفع الروح المعنوية، بين أفراد جيشه، فخاضوا المعارك، معتزين بسلاحهم، واثقين من نصر الله تعالى، فأيدهم المولى العلى القدير بنصره المبين ..

رابعا : كان سعد يمثل الروح العسكرية فى أوج قمتها ..

قبل إقدام سعد القائد العام للجيوش الإسلامية . على أى إجراء خطير فى معاركه ، كان يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب القائد الأعلى للجيوش الاسلامية..

فطالما أحاطه سعد بتفاصيل المعارك تباعا . . فوضع القائد الأعلى فى الصورة الصحيحة لكافة المواقع . .

لذلك كان عمر ، استنادا إلى أخبار سعد الحقيقة المنتظمة ، يمده بالرجال اللازمين ، والعتاد المطلوب ، متعاونا معه فى تفاصيل المعارك ..

خامسا : عندما اجتاحت قوات سعد المدائن ، واستقرت فيها ، جمع جنوده، بينها ذخائر كسرى ، ونفائسه ..

قسم سعد هذه الغنائم بعدالة تامة ، فأصاب الفارس اثنى عشر ألف درهم.

وأرسل بأخماس الغنائم إلى المدينة ، من بينها سيف كسرى ، ومنطقته ، ونفائسه وبساطه الثمين الذى يحاكى الربيع منظرا !!

قال عمر بن الخطاب ، لدى رؤيته مايخص المدينة من الغنائم .

ـــ أن قوما أدوا هذا لذووا وأمانة . .

فقال على بن أبى طالب :

ـــ أنك عففت ، فعفت الرعية !!

تجلت بذلك سيطرة سعد التامة على جنوده خلال المعارك وبعدها . .

سادسا : وضع سعد تخطيطا متكاملا لمدينة الكوفة التى تلائم الجنود جوا ، وتكفيهم إتساعا ، وتوفر لهم احتياجاتهم ، وتستوعب تنظيماتهم ، ويسهل وصول إمداداتهم اليها ، كما يسهل أيضا عند الضرورة الانسحاب منها .

سابعا ، احتفظ سعد بانتصاراته الباهرة الضياء ، فلم يطمس من معالمها أى خلط أو تشويه .:

واعتز بسيفه الذى أطاح برقاب المشركين ، فصانه عن التردى فى قتل المسلمين ، مبتعدا عن الفتنة الكبرى التى تكالب معاويه على احيائها، إحياء لمطامعه وأغراضه .

وفاة سعد :

فى العام الخامس والخمسين للهجرة ، اقترب سعد من العام الثمانين من عمره .

أحس سعد أنه على وشك فراق الدنيا ..

دعا سعد أولاده ، وكانوا سبعة عشر من الرجال ، وثمانى عشر من النساء ..

فتحدث إليهم موصيا إياهم لما فيه خير دنياهم ، وآخرتهم .. وذكر لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم زاره عام الفتح ، وكان سعد قد أشرف على الموت ، ولم يكن لديه من الذرية إلا إبنته الكبرى ، ولما أراد التصدق بماله كله ، لم يقره الرسول إلا بما قيمته الثلث ، مؤكدا له أن الثلث كثير .. وها هو ذا يترك أولادا قد كثر عددهم ، وصلح شأنهم ، وأنهم ليتزودون بثلثى ماله الحلال الوفير . . بعد أن تصدق بثلث ماله..

اقترب سعد من نهايته ، فطلب جبته من أولاده ، وكان قد احتفظ بها منذ أكثر من خمسين عاما ، بعد أن خلعها بعد عودته من غزوة بدر ، وقد أشرقت بدمائه الزكية ، التى ظلت مختلطة بها واضحة فيها .. وإنها لغالية عليه، أثيرة عنده، لازمته يوم بدر ، وشهدت نضاله ، وقتاله للمشركين ، وجهاده الصادق فى سبيل الله تعالى ، والرسول القائد ، يقود الزحف ، ويتصدر الهجوم ، ويحقق الانتصار

الخالد ، الذى دعم قوة المسلمين ، وأعلى راية الاسلام خفاقة ، وقوض معالم الشرك والوثنيه ، وأضاء الجزيرة العربية بنور الاسلام ..

أوصى سعد أولاده أن يكفنوه ، فى تلك الجبة المباركة ، التى ادخرها لهذا الغرض ، تقربا ، إلى الله تعالى ..

وضع مصعب بن سعد ، رأس أبيه فى حجره وحزن لقرب فراق أبيه العظيم ؛ فتساقطت دموعه فى صمت على خدى سعد الذى انتبه إلى ابنه الحزين الباكى قائلا:

— أتبكى يا بنى ؟؟ والله إن الله لايعذبنى أبدا ، وإنى من أهل الجنة .

وبفيض من إيمان عميق ، وخضوع لله تعالى ، قرأ سعد ما تيسر من القرآن الكريم ..

اقترب سعد المبشر بالجنة من لحظات عمره الأخيرة فنظر إلى من حوله نظرة الوداع الأخير . . ونطق بالشهادتين . . ثم فاضت روحه الطاهرة إلى عليين.

لقد حزن المسلمون حزنا كبيرا .. وعلا بكاؤهم ونحيبهم ..

ولما بلغ أهل المدينة نبأ وفاته ، انطلقوا ، وقد تملكهم الحزن الشديد ، إلى داره ليؤدوا حق خال رسول الله ، وصاحبه ..

ثم سار المشهد الرهيب من العتيق إلى المدينة ..

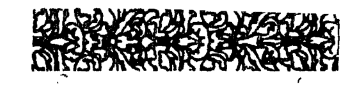
تسابق المشيعون فى حمل نعش الراحل العزيز على الأعناق ، طوال مسافة عشرة أميال حتى وصلوا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنالك طلبت أزواج النبى ، أمهات المؤمنين، أن يدخل الجثمان الطاهر إلى حجرهن، وأن يترك بها ليصلين عليه ..

انطلق المسلمون به بعد صلاة أمهات المؤمنين عليه ليرقد فى مثواه حيث أعد له قبر بين الصحابة فى البقيع ..

غفر الله عز وجل سعدا بالرحمة والرضاء ، قدر إيمانه العميق ، وقدر زهده وبره ، وقدر ما قدم من فضل المسلمين ، وقدر نشره الدعوة الاسلامية ..

رضى الله تعالى عن سعد بن أبي وقاص آخر أهل الشورى ، وأغدق عليه من نعمة وخيره فى الجنة التى بشر بها سعد من بين العشرة المبشرة بالجنة .

والله أكبر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .



مراجع الكتاب

(١) الامامه والسياسة لابن قتيبه الدينوری

(٢) مروج الذهب لأبى الحسن المسعودى

(٣) فتوح البلدان البلاذرى

(٤) طبقات ابن سعد

(٥) ابن الأثير

(٦) الطبرى

(٧) أسد الغابة

(٨) سيرة ابن هشام

(٩) جوامع السيرة لابن حزم

(١٠) الفتوحات الاسلامية لابن دحلان .

كتب صدرت للمؤلف

١ — رحلة العمر

نشرته وزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٧

٢— لمحات فى دنيا الفكر والروح

نشرته وزارة الثقافة عام ١٩٦٢

٣ —قمة الخلود

نشرته وزارة الثقافة عام ١٩٦٥

٤ — مع الخالدين

نشرته وزارة الحربية عام ١٩٦٧

محتويات الكتاب

تابع محتويات الكتاب

الناشر

دائرة المعارف العربية

للاعلام والتوزيع

المكاتبات

ص. ب ٢٠١ القاهرة

دار النصر للطباعة

٨ شارع حسين حجازي ت ٣١٧٤٨ القاهرة



الثمن ٢٠ قرش